تأملات ابن تيمة في
سورة الفاتحة
رقية غرايبة

تأمــلات شيـــــــخ الاسلام ابــن تيمــية
في

الـقــرآن الـكــريـــم

" سورة الفاتحة "

رقية محمود الغرايبة

ISBN
978-1-365-71644-7

الفهرس

الفاتحة1	14
الفاتحة2-3	17
الفاتحة4	25
الفاتحة5	28
الفاتحة6-7	78

أولها تحميد و أوسطها توحيد و آخرها دعاء	خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

الفاتحة1 _____ ***خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.***

{بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ } _____	خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
البسملة آية من القرآن _____	خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

الفاتحة2-3 _____ ***خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.***

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) _____	خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الحمد مفتاح كل أمر ذى بال _____	خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الحمد نوعان _____	خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الله سبحانه هو المعبود المحمود _____	خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
حمد الرب وتوحيده _____	خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
أمة محمد صلى الله عليه وسلم هم الحمادون _____	خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الحمد رأس الشكر _____	خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الرضا كماله الحمد _____	خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
لطائف لغوية _____	خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

الفاتحة4 _____ ***خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.***
{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
يوم الدين _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الفاتحة5 _____ ***خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.***
{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
حقيقة العبودية لله _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
عبادة وإستعانة _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الربوبية تستلزم الألوهية _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
سر الكلمات الكونيات و التكليفيات _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
لابد لكل عبد من معبود مستعان _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
كل معبود من دون الله باطل _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
صلاح العبد _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الاخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
توحيد الربوبية والألوهية _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
اعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الذي يستحق المحبة لذاته هو الله _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الإرادة الخلقية والإرادة الشرعية _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
التوكل والرجاءمعنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرعخطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
مقتضيات العبودية _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
كمال الذل بكمال الحب _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
***- المحبة التامة تستلزم الأرادة الجازمة** _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
التقوى والتوكل _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
أحرص على ما ينفعك واستعن بالله _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الأخذ بالأسباب _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

من أعرض عن الأمر والنهي و الوعد و الوعيد ناظرا إلى القدر فقد ضل و من طلب القيام بالأمر والنهي معرضا عن القدر فقد ضل _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الدعاء و السؤال من الأسباب _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
***السبب المأمور به أو المباح لا ينافي وجوب التوكل على الله**خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الاستعانة والتوكل _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
المحبة والإرادة _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
العبادة والتوكل _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الموالاة لله _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
إستعينوا بالله و اصبروا _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
***المؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على المقدور**خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الاطلاق والتقييد في الاسماء _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
المقصود بالدعاء _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

الفاتحة6-7 _____ *خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.*

{اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
النعمة المطلقة التامة _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
النعيم التام هو في الدين الحق_____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
لا تحصل النعمة إلا برحمة الله _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
المقصود بالهداية _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الهدى هو الالهام كما في قوله اهدنا الصراد المستقيم ___ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الدعاء ثلاثة انواع _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
أفضل الأدعية _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الله هو المنعم بالهدى _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
لا حجة لأحد على الله _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

أنفع الدعاء و أعظمه _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
كل عبد هو مفتقر دائما إلى حصول هذه الهداية _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الذنوب من لوازم نفس الانسان_____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
المقصود بالصراط المستقيم_____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
دين الأنبياء الإسلام_____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الصراط المستقيم يتضمن علم وعمل _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الاعتصام بالكتاب والسنة _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الاعتصام بالسنة نجاة _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
التقليد لا يورث الجزم_____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
لا يسوغ الخروج عن موجب العموم والاطلاق فى الكتاب والسنة بالشبهاتخطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
مجرد العلم بالحق لا يحصل به الإهتداء _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
العلم بالحق يوجب إتباعه _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
المهتدي الذي هداه الله الصراط المستقيم _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
من هم المنعم عليهم _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
عصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
أصحاب رسول الله خير القرون _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
أمر بسؤاله الهداية الى صراطهم_____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
المغضوب عليهم والضالون _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الذين فيهم شبه اليهود والنصارى _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
-1المعرضون عن الطريقة النبوية _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
-2العالم الفاجر و العابد الجاهل _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
صاحب هوى وصاحب دنيا_____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
***احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون**خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
البدع والمعاصي شعبة من الكفر _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

-3منحرفة أهل الكلام ومنحرفة أهل التصوف _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
أصل أمر أهل الكلام والصوفية _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
كل من عمل سوءا فهو جاهل _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
فرض سبحانه على الخلق أن يسألوه هدايته كل يوم مرارا خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الحكمة من أمر الله أن نقول فى كل صلاة {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
1-القلوب قد يعرض لها ما يفسدها_____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
2- النفس لها قوتان _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
3- رأس الإسلام له ضدان الكبر والشرك _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
4-{وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ }خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
5-{ رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً } _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الشر لم يرد فى أسمائه و إنما و رد فى مفعولاته _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
الشر لا يذكر إلا على أحد وجوه ثلاثة _____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
وحد الصراط والسبيل_____ خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

§§~الفاتحة(مكية)7~§§

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ{1} الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{2} الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ{3} مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ{4} إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{5} اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7 }

فاتحة الكتاب نزلت بمكة بلا ريب كما دل عليه قوله تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ }الحجر87 [1]

فضل سورة الفاتحة

روى البخاري فى صحيحه عن أبي سعيد بن المعلي قال كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله فلم أجبه فقلت يا رسول الله إنى كنت أصلي قال ألم يقل الله إستجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ثم قال لأعلمنك سورة هي أعظم سورة فى القرآن قال الحمد لله رب العالمين هي السبع المثانى والقرآن العظيم وفى السنن والمسانيد من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله قال لأبى بن كعب ألا أعلمك سورة ما أنزل فى التوراة ولا في الإنجيل و لا في الزبور ولا فى الفرقان مثلها قال فإنى أرجو أن لا تخرج من هذا الباب حتى تعلمها وقال فيه كيف تقرأ فى الصلاة فقرأت عليه أم القرآن فقال والذي نفسي بيده ما أنزل فى التوراة ولا فى الإنجيل و لا فى الزبور ولا فى القرآن مثلها إنها السبع المثانى والقرآن العظيم الذي أعطيته ورواه مالك فى الموطأ عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبى سعيد مولى عامر بن كريز مرسلا وفى صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وفى لفظ قال لي رسول الله أنزل علي آيات لم ير مثلهن قط المعوذتان فقد أخبر فى هذا الحديث الصحيح أنه لم ير مثل المعوذتين كما أخبر أنه لم ينزل فى التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثل الفاتحة وهذا مما يبين فضل بعض القرآن على بعض[2]

فقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم انه قال يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني و بين عبدي نصفين نصفها لي و نصفها لعبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدنى عبدي إذا قال الرحمن الرحيم قال الله أثنى علي عبدي و إذا قال مالك يوم الدين قال الله مجدنى عبدي و إذا قال إياك نعبد و إياك نستعين قال هذه الآية بيني و بين عبدي و لعبدي ما سأل فإذا قال اهدانا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم و لا الضالين قال هؤلاء لعبدي و لعبدي ما سأل و ثبت فى صحيح مسلم عن ابن عباس قال بينما جبريل قاعد عند النبى صلى الله عليه و سلم سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال هذا باب من السماء فتح اليوم و لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك نزل إلى الأرض و لم ينزل قط إلا اليوم فسلم و قال أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك فاتحة الكتاب و

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 191

[2] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 9-10 و رسالة في التوبة ج: 1 ص: 272

خواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته وفى بعض الأحاديث ان فاتحة الكتاب أعطيها من كنز تحت العرش قال الله تعالى في أم القرآن و السبع المثاني و القرآن العظيم {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 و هذه السورة هى أم القرآن و هي فاتحة الكتاب وهى السبع المثانى و القرآن العظيم و هي الشافية و هي الواجبة فى الصلوات لا صلاة إلا بها و هى الكافية تكفي من غيرها ولا يكفى غيرها عنها والصلاة أفضل الأعمال و هي مؤلفة من كلم طيب و عمل صالح أفضل كلمها الطيب وأوجبه القرآن و أفضل عملها الصالح وأوجبه السجود كما جمع بين الأمرين في أول سورة أنزلها على رسوله حيث افتتحها بقوله تعالى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }العلق1 و ختمها بقوله { وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ }العلق19 فوضعت الصلاة على ذلك أولها القراءة وآخرها السجود ولهذا قال سبحانه فى صلاة الخوف { فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ }النساء102 و المراد بالسجود الركعة التى يفعلونها و حدهم بعد مفارقتهم للامام و ما قبل القراءة من تكبير و استفتاح و استعاذة هي تحريم للصلاة و مقدمة لما بعده أول ما يبتدىء به كالتقدمة و ما يفعل بعد السجود من قعود و تشهد فيه التحية لله و السلام على عباده الصالحين و الدعاء و السلام على الحاضرين فهو تحليل للصلاة و معقبة لما قبله قال النبى صلى الله عليه و سلم مفتاح الصلاة الطهور و تحريمها التكبير و تحليلها التسليم ولهذا لما تنازع العلماء أيما أفضل كثرة الركوع و السجود أو طول القيام أو هما سواء على ثلاثة أقوال عن أحمد و غيره كان الصحيح انهما سواء القيام فيه أفضل الأذكار والسجود أفضل الأعمال فاعتدلا و لهذا كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه و سلم معتدلة يجعل الأركان قريبا من السواء اذا أطال القيام طولا كثيرا كما كان يفعل فى قيام الليل و صلاة الكسوف أطال معه الركوع و السجود و إذا أقتصد فيه اقتصد فى الركوع و السجود و أم الكتاب كما أنها القراءة الواجبة فهي أفضل سورة فى القرآن قال النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح لم ينزل فى التوراة و لا الانجيل ولا الزبور ولا القرآن مثلها و هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته و فضائلها كثيرة جدا وقد جاء مأثورا عن الحسن البصري رواه ابن ماجه و غيره أن الله أنزل مائة كتاب و أربعة كتب جمع علمها فى الأربعة و جمع علم الأربعة فى القرآن وجمع علم القرآن فى المفصل و جمع علم المفصل فى أم القرآن و جمع علم أم القرآن فى هاتين الكلمتين الجامعتين {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 و إن علم الكتب المنزلة من السماء اجتمع فى هاتين الكلمتين الجامعتين ولهذا ثبت في الحديث الصحيح حديث إن الله تعالى يقول قسمت الصلاة بيني و بين عبدي نصفين نصفها لي و نصفها لعبدي و لعبدي ما سأل فإذا قال الحمد لله رب العالمين قال الله حمدني عبدي و إذا قال الرحمن الرحيم قال الله أثنني علي عبدى و إذا قال مالك يوم الدين قال الله عز وجل مجدنى عبدى و فى رواية فوض إلي عبدى و إذا قال إياك نعبد و إياك نستعين قال فهذه الآية بينى و بين عبدى نصفين و لعبدى ما سأل فإذا قال اهدانا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم و لا الضالين قال فهؤلاء لعبدي و لعبدى ما سأل فقد ثبت بهذا النص أن هذه السورة منقسمة بين الله و بين عبده و أن هاتين الكلمتين مقتسم السورة ف {إِيَّاكَ نَعْبُدُ }الفاتحة5 مع ما قبله لله و { وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 مع ما بعده للعبد و له ما سأل ولهذا قال من قال من السلف نصفها ثناء و نصفها مسألة و كل واحد من العبادة و الاستعانة دعاء وإذا كان الله قد فرض علينا أن نناجيه و ندعوه بهاتين الكلمتين فى كل صلاة فمعلوم أن ذلك يقتضي أنه فرض علينا أن نعبده و أن نستعينه إذ إيجاب القول الذي هو إقرار و اعتراف و دعاء و سؤال هو إيجاب لمعناه ليس إيجابا لمجرد لفظ لامعنى له فإن هذا لا يجوز أن يقع بل إيجاب ذلك أبلغ من إيجاب مجرد العبادة و الاستعانة فإن ذلك قد يحصل أصله بمجرد القلب أو القلب و البدن بل أوجب دعاء الله عزوجل و مناجاته و تكليمه و مخاطبته بذلك ليكون الواجب من

ذلك كاملا صورة و معنى بالقلب و بسائر الجسد وقد جمع بين هذين الأصلين الجامعين إيجابا و غير إيجاب فى مواضع كقوله فى آخر سورة هود { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 و قول العبد الصالح شعيب { وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }هود88 و قول إبراهيم و الذين معه {رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }الممتحنة4 و قوله سبحانه إذ أمر رسوله أن يقول {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }الرعد30 فأمر نبيه بأن يقول على الرحمن توكلت و اليه متاب كما أمره بهما فى قوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 والأمر له أمر لأمته و أمره بذلك فى أم القرآن و فى غيرها لأمته ليكون فعلهم ذلك طاعة لله و أمتثالا لأمره و لا يتقدموا بين يدى الله و رسوله و لهذا كان عامة ما يفعله نبينا صلى الله عليه و سلم و الخالصون من أمته من الأدعية و العبادات و غيرها إنما هو بأمر من الله بخلاف من يفعل مالم يؤمر به و إن كان حسنا أو عفوا و هذا أحد الأسباب الموجبة لفضله و فضل أمته على من سواهم و فضل الخالصين من أمته على المشوبين الذين شابوا ماجاء به بغيره كالمنحرفين عن الصراط المستقيم وإلى هذين الأصلين كان النبى صلى الله عليه و سلم يقصد فى عباداته و أذكاره و مناجاته مثل قوله فى الأضحية اللهم هذا منك و لك فإن قوله منك هو معنى التوكل و الاستعانة و قوله لك هو معنى العبادة ومثل قوله في قيامه من الليل لك أسلمت و بك آمنت و عليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني أنت الحي الذى لا تموت والجن والانس يموتون إلى أمثال ذلك إذا تقرر هذا الأصل فالإنسان فى هذين الواجبين لا يخلو من أحوال أربعة هي القسمة الممكنة إما أن يأتي بهما و إما أن يأتى بالعبادة فقط و إما أن يأتى بالاستعانة فقط واما أن يتركهما جميعا ولهذا كان الناس في هذه الأقسام الأربعة بل أهل الديانات هم أهل هذه الأقسام وهم المقصودون هنا بالكلام قسم يغلب عليه قصد التأله لله ومتابعة الأمر والنهي والاخلاص لله تعالى واتباع الشريعة في الخضوع لأوامره وزواجره وكلماته الكونيات لكن يكون منقوصا من جانب الاستعانة و التوكل فيكون إما عاجزا وإما مفرطا وهو مغلوب إما مع عدوه الباطن واما مع عدوه الظاهر وربما يكثر منه الجزع مما يصيبه والحزن لما يفوته وهذا حال كثير ممن يعرف شريعة الله و أمره و يرى أنه متبع للشريعة و للعبادة الشرعية ولا يعرف قضاءه وقدره وهو حسن القصد طالب للحق لكنه غير عارف بالسبيل الموصلة و الطريق المفضية وقسم يغلب عليه قصد الاستعانة بالله والتو كل عليه وإظهار الفقر والفاقة بين يديه والخضوع لقضائه وقدره وكلماته الكونيات لكن يكون منقوصا من جانب العبادة واخلاص الدين لله فلا يكون مقصوده ان يكون الدين كله لله وإن كان مقصوده ذلك فلا يكون متبعا لشريعة الله عز وجل ومنهاجه بل قصده نوع سلطان فى العالم إما سلطان قدرة وتأثير وإما سلطان كشف وإخبار أو قصده طلب ما يريده ودفع ما يكرهه بأي طريق كان أو مقصوده نوع عبادة وتأله بأي وجه كان همته فى الاستعانة و التوكل المعينة له على مقصوده فيكون إما جاهلا وإما ظالما تاركا لبعض ما أمره الله به راكبا لبعض ما نهى الله عنه وهذه حال كثير ممن يتأله ويتصوف ويتفقر ويشهد قدر الله وقضاءه ولا يشهد أمر الله ونهيه ويشهد قيام الأكوان بالله وفقرها إليه وإقامته لها ولا يشهد ما أمر به وما نهى عنه وما الذي يحبه الله منه ويرضاه وما الذي يكرهه منه ويسخطه ولهذا يكثر فى هؤلاء من له كشف و تأثير وخرق عادة مع انحلال عن بعض الشريعة ومخالفة لبعض الأمر وإذا أوغل الرجل منهم دخل فى الاباحية والانحلال وربما صعد الى فساد التوحيد فيخرج إلى الاتحاد والحلول المقيد كما قد وقع لكثير من الشيوخ ويوجد فى كلام صاحب منازل السائرين وغيره ما يفضي الى ذلك وقد يدخل بعضهم فى الاتحاد المطلق والقول بوحدة الوجود فيعتقد أن الله هو الوجود المطلق كما يقول

صاحب الفتوحات المكية في أولها الرب حق والعبد حق ياليت شعري من المكلف إن قلت عبد فذاك ميت أو قلت رب أنى يكلف و قسم ثالث معرضون عن عبادة الله وعن الاستعانة به جمعيا وهم فريقان أهل دنيا وأهل دين فأهل الدين منهم هم أهل الدين الفاسد الذين يعبدون غير الله ويستعينون غير الله بظنهم وهو أهم { إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى }النجم23 وأهل الدنيا منهم الذين يطلبون ما يشتهونه من العاجلة بما يعتقدونه من الأسباب واعلم أنه يجب التفريق بين من قد يعرض عن عبادة الله والاستعانة به وبين من يعبد غيره ويستعين بسواه [1]

فإن الكلام إما إخبار وإما إنشاء وأفضل الإخبار ما كان خبرا عن الله والإخبار عن الله أفضل من الخبر عن غيره ومن الإنشاءات ولهذا كانت قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن لأنها تتضمن الخبر عن الله وكانت آية الكرسى أفضل فى آية القرآن لأنها خبر عن الله فما كان من الذكر من جنس هذه السورة وهذه الآية فهو أفضل الأنواع والسؤال للرب هو بعد الذكر المحض كما فى حديث مالك بن الحويرث من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ولهذا كانت الفاتحة نصفين نصفا ثناء ونصفا دعاء والنصف الثانى هو المقدم وهو الذى لله عز وجل وكذلك فى حديث الشفاعة الصحيح قال فإذا رأيت ربى خررت له ساجدا فأحمد ربى بمحامد يفتحها على لا أحسنها الآن فيقول أى محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه وإشفع تشفع فبدأ بالحمد لله حتى أذن له فى السؤال فسأل وفى صحيح البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من تعار من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير والحمد لله وسبحان الله والله أكبر اللهم إغفر لى فإن دعا إستجيب دعاؤه وإن توضأ وصلى قبلت صلاته وقال أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ولهذا كان التشهد ثناء على الله عز وجل وقال فى آخره ثم ليتخير من المسألة ما شاء والأدعية الشرعية هى بعد التشهد لم يشرع الدعاء فى القعود قبل التشهد بل قدم الثناء على الدعاء وفى حديث الذى دعا قبل الثناء قال النبى صلى الله عليه وسلم عجل هذا فروى الإمام أحمد والترمذى وأبو داود عن فضالة بن عبيد قال سمع رسول الله رجلا يدعو فى صلاته لم يحمد الله ولم يصل على النبى فقال رسول الله عجل هذا ثم دعاه فقال له أو لغيره إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه ثم يصلى على النبى ثم يدعو بعد ذلك بما شاء [2]

قال النبي صلى الله عليه وسلم لا صلاة إلا بأم القرآن [3]

أولها تحميد و أوسطها توحيد و آخرها دعاء

1-مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 4-14

[2] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 376

[3] مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 13

و فى حديث أبي سعيد الحمد رأس الشكر والتوحيد كما جمع بينهما في أم القرآن فأولها تحميد و أوسطها توحيد و آخرها دعاء و كما في قوله {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } غافر65 وفى حديث الموطأ أفضل ما قلت أنا و النبيون من قبلى لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك و له لحمد و هو على كل شيء قدير من قالها كتب الله له الف حسنة و حط عنه ألف سيئة و كانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك و لم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثلها أو زاد عليه و من قال فى يوم مائة مرة سبحان الله و بحمده حطت خطاياه و لو كانت مثل زبد البحر وفضائل هذه الكلمات فى أحاديث كثيره و فيها التوحيد والتحميد فقوله لا إله إلا الله وحده لا شريك له توحيد و قوله له الملك و له الحمد تحميد و فيها معان أخرى شريفة وقد جاء الجمع بين التوحيد و التحميد و الاستغفار فى مواضع مثل حديث كفارة المجلس سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك فيه التسبيح و التحميد والتوحيد و الاستغفار من قالها فى مجلس إن كان مجلس لغط كانت كفارة له وإن كان مجلس ذكر كانت كالطابع له و فى حديث أيضا إن هذا يقال عقب الوضوء ففى الحديث الصحيح فى مسلم وغيره من حديث عقبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له و أشهد أن محمدا عبده و رسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء وفي حديث آخر أنه يقول سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لاإله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك وقد روى عن طائفة من السلف فى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه نحو هذه الكلمات روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال اللهم لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي أنك خير الغافرين اللهم لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك رب إنى ظلمت نفسي فارحمني فأنت خير الراحمين لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك رب إني ظلمت نفسي فتب علي إنك انت التواب الرحيم فهذه الكلمات من جنس خاتمة الوضوء و خاتمة الوضوء فيها التسبيح و التحميد و التوحيد و الاستغفار فالتسبيح و التحميد و التوحيد لله فانه لا يأتي بالحسنات الا هو الاستغفار من ذنوب النفس التى منها تأتى السيئات وقد قرن الله فى كتابه بين التوحيد و الاستغفار فى غير موضع كقوله {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ }محمد19 و فى قوله { أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ{2} وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ {3} هود2-3 و فى قوله {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ }فصلت6 وفى حديث رواه ابن أبى عاصم و غيره يقول الشيطان أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بالاستغفار و بلا إله إلا الله فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون لايستغفرون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا و لاإله إلا الله تقتضي الاخلاص و التوكل و الاخلاص يقتضي الشكر فهي أفضل الكلام و هي أعلى شعب الايمان كما ثبت في الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الايمان بضع وستون أو بضع و سبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان لاإله إلاالله هي قطب رحى الايمان و إليها يرجع الأمر كله والكتب المنزلة مجموعة في قوله تعالى{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وهي لا إله إلا الله ولاحول ولا قوة إلا بالله هي من معنى لا إله إلا الله والحمد لله فى معناها وسبحان الله والله أكبر من معناها لكن فيها تفصيل بعد إجمال[1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص:418- 421 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 158

و الصلاة مبناها على التسبيح فى الركوع و السجود و التحميد و التوحيد فى القيام و القعود و التكبير فى الإنتقالات كما قال جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم فكنا إذا علونا كبرنا و إذا هبطنا سبحنا فوضعت الصلاة على ذلك رواه أبو داود و فى الركوع يقول سبحان ربى العظيم و قال النبى صلى الله عليه و سلم إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا أما الركوع فعظموا فيه الرب و أما السجود فاجتهدوا فيه فى الدعاء فقمن أن يستجاب لكم و إذا رفع رأسه حمد فقال سمع الله لمن حمده ربنا و لك الحمد فيحمده في هذا القيام كما يحمده فى القيام الأول إذا قرأ أم القرآن فالتحميد و التوحيد مقدم على مجرد التعظيم و لهذا إشتملت الفاتحة على هذا أولها تحميد و أوسطها تمجيد ثم فى الركوع تعظيم الرب و فى القيام يحمده و يثنى عليه و يمجده فدل على أن التعظيم المجرد تابع لكونه محمودا و كونه معبودا فإنه يحب أن يحمد و يعبد و لابد مع ذلك من التعظيم فإن التعظيم لازم لذلك [1]

وقد ثبت فى الصحيحين حديث الذين رقوا بالفاتحة وقال النبى وما أدراك إنها رقية وأذن لهم فى أخذ الجعل على شفاء اللديغ بالرقية وقد قال النبى للشيطان الذى أراد قطع صلاته اعوذ بالله منك ألعنك بلعنة الله التامة ثلاث مرات [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 321

[2] مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 59

الفاتحة1

{بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ }

البسملة آية من القرآن

الحمد لله اتفق المسلمون على أن بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن في قوله {إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }النمل30 وتنازعوا فيها في أوائل السور حيث كتبت على ثلاثة أقوال أحدها إنها ليست من القرآن وإنما كتبت تبركا بها وهذا مذهب مالك وطائفة من الحنفية ويحكى هذا رواية عن أحمد ولا يصح عنه وإن كان قولا في مذهبه والثاني إنها من كل سورة إما آية وإما بعض آية وهذا مذهب الشافعي رضي الله عنه والثالث إنها من القرآن حيث كتبت كتبت آية من كتاب الله من أول كل سورة وليست من السورة وهذا مذهب ابن المبارك وأحمد بن حنبل رضي الله عنه وغيرهما وذكر الرازي أنه مقتضى مذهب أبي حنيفة عنده وهذا أعدل الأقوال فإن كتابتها فى المصحف بقلم القرآن تدل على أنها من القرآن وكتابتها مفردة مفصولة عما قبلها وما بعدها تدل على أنها ليست من السورة ويدل على ذلك ما رواه أهل السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن سورة من القرآن ثلاثين آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي تبارك الذي بيده الملك وهذا لا ينافي ذلك فإن في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم أغفى إغفاءة فقال لقد نزلت علي آنفا سورة وقرأ إنا أعطيناك الكوثر لأن ذلك لم يذكر فيه أنها من السورة بل فيه أنها تقرأ في أول السورة وهذا سنة فإنها تقرأ في أول كل سورة وإن لم تكن من السورة ومثله حديث ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرف فصل السورة حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم رواه أبو داود ففيه أنها نزلت للفصل وليس فيه أنها آية منها و تبارك الذي بيده الملك الملك1 ثلاثون آية بدون البسملة ولأن العادين لآيات القرآن لم يعد أحد منهم البسملة من السورة لكن هؤلاء تنازعوا في الفاتحة هل هي آية منها دون غيرها على قولين هما روايتان عن أحمد أحدهما إنها من الفاتحة دون غيرها وهذا مذهب طائفة من أهل الحديث أظنه قول أبي عبيد واحتج هؤلاء بالآثار التي

رويت في أن البسملة من الفاتحة وعلى قول هؤلاء تجب قراءتها في الصلاة وهؤلاء يوجبون قراءتها وإن لم يجهروا بها والثاني إنها ليست من الفاتحة كما أنها ليست من غيرها وهذا أظهر فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها له ولعبدي ما سأل يقول العبد { الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} الفاتحة 2 يقول الله حمدني عبدي يقول العبد {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ } الفاتحة 3 يقول الله أثنى علي عبدي يقول العبد { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } الفاتحة 4 يقول الله مجدني عبدي يقول العبد { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين } الفاتحة 5 يقول الله فهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل يقول العبد {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} إلى آخرها يقول الله فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل فلو كانت من الفاتحة لذكرها كما ذكر غيرها وقد روي ذكرها في حديث موضوع رواه عبد الله ابن زياد بن سمعان فذكره مثل الثعلبي في تفسيره ومثل من جمع أحاديث الجهر وأنها كلها ضعيفة أو موضوعة ولو كانت منها لما كان للرب ثلاث آيات ونصف وللعبد ثلاث ونصف وظاهر الحديث أن القسمة وقعت على الآيات فإنه قال فهؤلاء لعبدي وهؤلاء إشارة إلى جمع فعلم أن من قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ } الفاتحة 6 إلى آخرها ثلاث آيات على قول من لا يعد البسملة آية

منها ومن عدها آية منها جعل هذا آيتين وأيضا فإن الفاتحة سورة من سور القرآن والبسملة مكتوبة في أولها فلا فرق بينها وبين غيرها من السور في مثل ذلك وهذا من أظهر وجوه الاعتبار وأيضا فلو كانت منها لتليت في الصلاة جهرا كما تتلى سائر آيات السورة وهذا مذهب من يرى الجهر بها كالشافعي وطائفة من المكيين والبصريين فإنهم قالوا إنها آية من الفاتحة يجهر بها كسائر آيات الفاتحة واعتمد على آثار منقولة بعضها عن الصحابة وبعضها عن النبي صلى الله عليه وسلم فأما المأثور عن الصحابة كابن الزبير ونحوه ففيه صحيح وفيه ضعيف وأما المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو ضعيف أو موضوع كما ذكر ذلك حفاظ الحديث كالدارقطني وغيره ولهذا لم يرو أهل السنن والمسانيد المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الجهر بها حديثا واحدا وإنما يروي أمثال هذه الأحاديث من لا يميز من أهل التفسي الجواب كالثعلبي ونحوه وكبعض من صنف في هذا الباب من أهل الحديث كما يذكره طائفة من الفقهاء في كتب الفقه وقد حكي القول بالجهر عن أحمد وغيره بناء على إحدى الروايتين عنه من أنها من الفاتحة فيجهر بها كما يجهر بسائر الفاتحة وليس هذا مذهبه بل يخافت بها عنده وإن قال هي من الفاتحة لكن يجهر بها عنده لمصلحة راجحة مثل أن يكون المصلون لا يقرأونها بحال فيجهر بها ليعلمهم أن قراءتها سنة كما جهر ابن عباس بالفاتحة على الجنازة وكما جهر عمر بن الخطاب بالاستفتاح وكما نقل عن أبي هريرة أنه قرأ بها ثم قرأ بأم الكتاب وقال أنا أشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم رواه النسائي وهو أجود ما احتجوا به وكذلك فسر بعض أصحاب أحمد خلافه أنه كان يجهر بها إذا كان المأمومون ينكرون على من لم يجهر بها وأمثال ذلك فإن الجهر بها والمخافتة سنة فلو جهر بها المخافت صحت صلاته بلا ريب وجمهور العلماء كأبي حنيفة ومالك وأحمد والأوزاعي ا يرون الجهر لكن منهم من يقرأها سرا كأبي حنيفة وأحمد وغيرهما ومنهم من لا يقرأها سرا ولا جهرا كمالك وحجة الجمهور ما ثبت في الصحيح من أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر كانوا لا يجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم وفي لفظ لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا آخرها و الله أعلم [1]

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{182}الصافات180 - 182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 233-235

والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ }الفاتحة1[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 132 و العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 10

الفاتحة2-3

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3)

الحمد مفتاح كل أمر ذى بال

والحمد مفتاح كل أمر ذى بال من مناجات الرب ومخاطبة العباد بعضهم بعضا والشهادة مقرونة بالحمد وبالتكبير فهى فى الأذان وفى الخطب خاتمة الثناء فتذكر بعد التكبير ثم يخاطب الناس بقول المؤذن حى على الصلاة حى على الفلاح وتذكر فى الخطب ثم يخاطب الناس بقول إما بعد وتذكر فى التشهد ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فالحمد والتوحيد مقدم فى خطاب الخلق للخالق والحمد له الإبتداء فإن الله لما خلق آدم عليه السلام أول ما أنطقه بالحمد فإنه عطس وقال الحمد لله رب العالمين فقال الله يرحمك ربك وكان أول ما نطق به الحمد وأول ما سمع من الله الرحمة وبه إفتتح الله أم القرآن والتشهد هو الخاتمة فأول الفاتحة الحمد لله وآخر ما للرب إياك نعبد وكذلك التشهد والخطب فيها التشهد بعد الفاتحة فإن يتضمن إلهيه الرب وهو أن يكون الرب هو المعبود هذا هو الغاية التى ينتهى إليها اعمال العباد و {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا }الأنبياء22 لكن قدم الحمد لأن الحمد يكون من الله ويكون من الخلق وهو باق فى الجنة {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }يونس10 بخلاف العبادة فإن العبادة إنما تكون فى الدنيا بالسجود ونحوه وتوحيده وذكره باق فى الجنة يلهمه أهل الجنة كما يلهمهم النفس وهذه الأذكار هى من جنس الأقوال ليست من العبادات العملية كالسجود والقيام والإحرام والرب تعالى يحمده نفسه ولا يعبد نفسه فالحمد أوسع العلوم الإلهية والحمد يفتح به ويختم به فالسنة لمن أكل وشرب أن يحمد الله وفى صحيح مسلم عن النبى أنه قال ك إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها وقال تعالى {وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الزمر75 وقال تعالى {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الأنعام45 وقال { وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }يونس10 [1]

الحمد نوعان

فان الله سبحانه اخبر ان له الحمد وانه حميد مجيد وان له الحمد فى الاولى والاخرة وله الحكم ونحو ذلك من انواع المحامد والحمد نوعان حمد على احسانه الى عباده وهو من الشكر وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله وهذا الحمد لا يكون الا على ما هو فى نفسه مستحق للحمد وانما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهى امور وجودية فان الامور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا كمال ومعلوم ان كل ما يحمد فانما يحمد على ماله من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق والذى منه ما يحمد عليه هو أحق بالحمد فثبت انه لمستحق للمحامد الكاملة وهو احق من كل محمود بالحمد والكمال من كل كامل وهو المطلوب [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 398-399

[2] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 84 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 77

الله سبحانه هو المعبود المحمود

لا صلاح للخلق إلا بالمعبود المراد لذاته من جهة غاية أفعالهم ونهاية حركاتهم وما سوى الله لا يصلح فلو كان فيهما معبود غيره لفسدتا من هذه الجهة فإنه سبحانه هو المعبود المحبوب لذاته كما أنه هو الرب خالق بمشيئته وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل ولهذا قال الله في فاتحة الكتاب {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وقدم اسم الله على اسم الرب في أولها حيث قال { الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}الفاتحة2 فالمعبود هو المقصود المطلوب المحبوب لذاته وهو الغاية والمعين وهو البارىء المبدع الخالق ومنه ابتداء كل شيء والغايات تحصل بالبدايات والبدايات بطلب الغايات فالإلهية هي الغاية وبها تتعلق حكمته وهو الذي يستحق لذاته أن يعبد ويحب ويحمد ويمجد وهو سبحانه يحمد نفسه ويثني على نفسه ويمجد نفسه ولا أحد أحق بذلك منه حامدا ومحمودا[1]

وعلى مذهب السلف له الملك وله الحمد تامين وهو محمود على حكمته كما هو محمود على قدرته ورحمته وقد قال {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }آل عمران18 فله الوحدانية في الهيئة وله العدل وله العزة والحكمة وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهم فمن قصر عن معرفة السنة فقد نقص الرب بعض حقه وشرع الحمد الذي هو الشكر المقول أمام كل خطاب مع التوحيد ففي الفاتحة الشكر والتوحيد [2]

وأما أهل التوحيد الذين يعبدون الله مخلصين له الدين فإن في قلوبهم محبة الله لا يماثله فيها غيره ولهذا كان الرب محمودا حمدا مطلقا على كل ما فعله وحمدا خاصا على إحسانه إلى الحامد فهذا حمد الشكر والأول حمده على كل ما فعله كما قال {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ }الأنعام1 {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }فاطر1 والحمد ضد الذم والحمد خبر بمحاسن المحمود مقرون بمحبته والذم خبر بمساوىء المذموم مقرون ببغضه فلا يكون حمد لمحمود إلا مع محبته ولا يكون ذم لمذموم إلا مع بغضه وهو سبحانه له الحمد في الأولى والآخرة وأول ما نطق به آدم الحمد لله رب العالمين وأول ما سمع من ربه يرحمك ربك وآخر دعوى أهل الجنة أن الحمد لله رب العالمين وأول من يدعى إلى الجنة الحمادون ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم صاحب لواء الحمد آدم فمن دونه تحت لوائه وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون فلا تكون عبادة إلا بحب المعبود ولا يكون حمد إلا بحب المحمود وهو سبحانه المعبود المحمود وأول نصف الفاتحة الذي للرب حمده وآخره عبادته أوله الحمد لله رب العالمين وآخره إياك نعبد كما ثبت في حديث القسمة يقول الله تبارك وتعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل يقول العبد الحمد لله رب العالمين فيقول الله حمدني عبدي يقول العبد الرحمن الرحيم فيقول الله تعالى أثنى علي عبدي يقول العبد مالك يوم الدين فيقول الله تبارك وتعالى مجدني عبدي يقول العبد إياك نعبد وإياك نستعين فيقول الله تعالى هذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل يقول العبد أهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة يقول الله تعالى هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل رواه مسلم في صحيحه وقال النبي صلى الله عليه وسلم أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فجمع بين التوحيد التحميد كما قال تعالى {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 335

[2] **الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 77**

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }غافر65 وكان ابن عباس يقول إذا قلت لا إله إلا الله فقل الحمد لله رب العالمين يتأول هذه الآية وفي سنن ابن ماجة وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله وفي السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم وقال أيضا كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء فلا بد في الخطب من الحمد لله ومن توحيده ولهذا كانت الخطب في الجمع والأعياد وغير ذلك مشتملة على هذين الأصلين وكذلك التشهد في آخر الصلاة أوله ثناء على الله وآخره الشهادتان ولا يكون الثناء إلا على محبوب ولا التأله إلا لمحبوب وقد بسطنا الكلام في حقائق هذه الكلمات في مواضع متعددة وإذا كان العباد يحمدونه ويثنون عليه ويحبونه فهو سبحانه أحق بحمد نفسه والثناء على نفسه والمحبة لنفسه كما قال أفضل الخلق لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فلا ثناء من مثن أعظم من ثناء الرب على نفسه ولا ثناء إلا بحب ولا حب من محبوب لمحبوب أعظم من محبة الرب لنفسه وكل ما يحبه من عباده فهو تابع لحبه لنفسه فهو يحب المقسطين والمحسنين والصابرين والمؤمنين ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويفرح بتوبة التائبين كل ذلك تبعا لمحبته لنفسه فإن المؤمن إذا كان يحب ما يحبه من المخلوقات لله فيكون حبه للرسول والصالحين تبعا لحبه لله فكيف الرب تعالى فيما يحبه من مخلوقاته إنما يحبه تبعا لحبه لنفسه وخلق المخلوقات لحكمته التي يحبها فما خلق شيئا إلا لحكمة وهو سبحانه قد قال { أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ }السجدة7 وقال { صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ }النمل88 وليس في أسمائه الحسنى إلا اسم يمدح به ولهذا كانت كلها حسنى والحسنى بخلاف السوأى فكلها حسنة والحسن محبوب ممدوح فالمقصود بالخلق ما يحبه ويرضاه وذلك أمر ممدوح ولكن قد يكون من لوازم ذلك ما يريده لأنه من لوازم ما يحبه ووسائله فإن وجود الملزوم بدون اللازم ممتنع كما يمتنع وجود العلم والإرادة بلا حياة ويمتنع وجود المولود مع كونه مولودا بلا ولادة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح حديث الإستفتاح والخير كله بيديك والشر ليس إليك وقد قيل في تفسيره لا يتقرب به إليك بناء على أنه الأعمال المنهي عنها وقد قيل لا يضاف إليك بناء على أنه المخلوق والشر المخلوق لا يضاف إلى الله مجردا عن الخير قط وإنما يذكر على أحد وجوه ثلاثة إما مع إضافته إلى المخلوق كقوله {مِن شَرِّ مَا خَلَقَ }الفلق2 وإما مع حذف الفاعل كقوله تعالى {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً }الجن10 ومنه في الفاتحة { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة7 فذكر الإنعام مضافا إليه وذكر الغضب محذوفا فاعله وذكر الضلال مضافا إلى العبد وكذلك قوله {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ }الشعراء80 وإما أن يدخل في العموم كقوله { خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ }الأنعام102 ولهذا إذا ذكر باسمه الخاص قرن بالخير كقوله في أسمائه الحسنى الضار النافع المعطي المانع الخافض الرافع المعز المذل فجمع بين الأسمين لما فيه من العموم والشمول الدال على وحدانيته وأنه وحده يفعل جميع هذه الأشياء ولهذا لا يدعى بأحد الإسمين كالضار والنافع والخافض والرافع بل يذكران جميعا ولهذا كان كل نعمة منه فضلا وكل نقمة منه عدلا وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يمين الله ملأى لا يغضيها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع فالإحسان بيده اليمنى والعدل بيده الأخرى وكلتا يديه يمين مباركة كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المقسطون عند الله يوم القيامة عن منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذي يعدلون في أهليهم وما ولوا ولبسط هذا موضع آخر والمقصود هنا أنه سبحانه إذا خلق ما يبغضه ويكرهه لحكمة يحبها ويرضاها فهو مريد لكل ما خلقه وإن كان بعض مخلوقاته إنما خلقه لغيره وهو يبغضه ولا يحبه

وهذا الفرق بين المحبة والمشيئة هو مذهب السلف وأهل الحديث والفقهاء وأكثر متكلمي أهل السنة كالحنفية والكرامية[1]

أنه سبحانه عدل لا يظلم و عدله إحسان إلى خلقه فكل ما خلقه فهو إحسان إلى عباده و لهذا كان مستحقا للحمد على كل حال و لهذا ذكر فى سورة النجم أنواعا من مقدوراته ثم قال {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكَ تَتَمَارَى }النجم55 فدل على أن هذه الأنعم مثل إهلاك الأمم المكذبة للرسل فإن فى ذلك من الدلالة على قدرته و حكمته و نعمته على المؤمنين و نصره للرسل و تحقيق ما جاؤا به و أن السعادة فى متابعتهم و الشقاوة فى مخالفتهم ما هو من أعظم النعم وكذلك ماذكره فى سورة الرحمن و كل مخلوق هو من آلائه من و جوه منها أنه يستدل به عليه و على توحيده و قدرته و غير ذلك و أنه يحصل به الإيمان و العلم و ذكر الرب وهذه النعمة أفضل ما أنعم الله به على عباده فى الدينا و كل مخلوق يعين عليها و يدل عليها هذا مع مافى المخلوقات من المنافع لعباده غيرالإستدلال بها فإنه سبحانه يقول{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }الرحمن13 لما يذكر ما يذكره من الآية و قال {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكَ تَتَمَارَى }النجم55 و الآلاء هي النعم و النعم كلها من آياته الدالة على نفسه المقدسة و وحدانيته و نعوته و معاني أسمائه فهي آلاء آيات و كل ما كان من آلائه فهو من آياته و هذا ظاهر و كذلك كل ما كان من آياته فهو من آلائه فإنه يتضمن التعريف و الهداية و الدلالة على الرب تعالى و قدرته و حكمته و رحمته و دينه و الهدى أفضل النعم و أيضا ففيها نعم و منافع لعباده غير الإستدلال كما فى خلق الشمس و القمر و السحاب و المطر و الحيوان و النبات فإن هذه كلها من آياته و فيها نعم عظيمة على عباده غير الإستدلال فهى توجب الشكر لما فيها من النعم و توجب التذكر لما فيها من الدلالة قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً }الفرقان62 و قال {تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ }ق8 فإن العبد يدعوه إلى عبادة الله داعي الشكر و داعي العلم فإنه يشهد نعم الله عليه و ذاك داع إلى شكرها و قد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها و الله تعالى هو المنعم المحسن الذي ما بالعباد من نعمة فمنه و حده كما في الحديث من قال إذا أصبح اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك و حدك لاشريك لك فقد أدى شكر ذلك اليوم و من قال ذلك إذا أمسى فقد أدى شكر تلك الليلة رواه أبو حاتم و إبن حبان في صحيحه من حديث إبن عباس و في حديث آخر من قال الحمد لله ربي لاأشرك به شيئا أشهد أن لا إله إلا الله وقد ذم سبحانه من كفر بعد إيمانه كما قال {قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ }الأنعام63 الآية فهذا فى كشف الضر و في النعم قال {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ }الواقعة82 أى شكرتم و شكر مارزقكم الله و نصيبكم تجعلونه تكذيبا و هو الأستسقاء بالأنواء كما ثبت فى حديث إبن عباس الصحيح قال مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال صلى الله عليه و سلم أصبح من الناس شاكر و منهم كافر قالوا هذه رحمة الله و قال بعضهم لقد صدق نوء كذا و كذا قال فنزلت هذه الآية {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ }الواقعة75 حتى بلغ {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ }الواقعة82 رواه مسلم وفي صحيح مسلم أيضا عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم ما أنزل من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ينزل الله الغيث فيقول الكوكب كذا و كذا و فى لفظ له بكوكب كذا و كذا و

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 405

فى الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه و سلم صلاة الصبح على أثر سماء كانت من الليل قال أتدرون ماذا قال ربكم قالوا الله و رسوله أعلم قال قال أصبح من عبادي مؤمن بي و كافر فمن قال مطرنا بفضل الله و رحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب و من قال مطرنا بنوء كذا و كذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب و هذا كثير جدا في الكتاب و السنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره و يشركه به قال بعض السلف هو كقوله كانت الريح طيبة و الملاح حاذقا ولهذا قرن الشكر بالتوحيد فى الفاتحة و غيرها أولها شكر و أوسطها توحيد و فى الخطب المشوعة لابد فيها من تحميد و توحيد و هذان هما ركن فى كل خطاب ثم بعد ذلك يذكر المتكلم من مقصوده ما يناسب من الأمر و النهيى و الترغيب و الترهيب و غير ذلك وقوله لا إله إلا الله و حده لا شريك له له الملك و له الحمد يتضمن التوحيد و التحميد و كذلك كان يقول عقب الصلاة لا إله إلا الله و لا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين و لو كره الكافرون و هو سبحانه يفتتح خطابه بالحمد و يختم الأمور بالحمد و أول ما خلق آدم كان أول شيء أنطقه به الحمد فإنه عطس فأنطقه بقوله الحمد لله فقال له يرحمك ربك يا آدم و كان أول ما تكلم به الحمد و أول ماسمعه الرحمة وهو يختم الأمور بالحمد كقوله { وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الزمر75 {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الأنعام45 { وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }يونس10 و هو سبحانه { لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }القصص70 و التوحيد أول الدين و آخره فأول مادعا إليه الرسول صلى الله عليه و سلم شهادة أن لا إله إلا الله و قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدون أن لا إله إلا الله و قال لمعاذ إنك تأتى قوما أهل الكتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله و ختم الأمر بالتوحيد فقال فى الصحيح من رواية مسلم عن عثمان من مات و هو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة و فى الحديث الصحيح من رواية مسلم عن أبى هريرة لقنوا موتاكم لا إله إلا الله و فى السنن من حديث معاذ من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة و فى المسند إني لاعلم كلمة لايقولها عبد حين الموت إلا و جد روحه لها روحا و هي الكلمة التى عرضها على عمه عند الموت فهو سبحانه جعل الليل و النهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد مشكور فيتذكر الآيات المثبتة للعلم و الإيمان فإذا عرف آلاء الله شكره على آلائه و كلاهما متلازمان فالآيات و الآلاء متلازمان ما كان من الآلاء فهو من الآيات و ما كان من الآيات فهو من الآلاء و كذلك الشكر و التذكر متلازمان فإن الشاكر إنما يشكر بحمده و طاعته و فعل ما أمر به و ذلك إنما يكون بتذكر ما تدل عليه آيانه من أسمائه و ممادحه و من أمره و نهيه فيثنى عليه بالخير و يطاع فى الأمر هذا هو الشكر و لابد فيهما من التذكر و التذكر إذا تذكر آياته عرف مافيها من النعمة و الإحسان فآياته تعم المخلوقات كلها و هى خير و نعم و إحسان فكل ماخلقه سبحانه فهو نعمة على عباده و هو خير وهو سبحانه بيده الخير والخير بيديه و فى دعاء القنوت و نثني عليك الخير كله و فى دعاءالإستفتاح والخير بيديك و الشر ليس إليك [1]

حمد الرب وتوحيده

فهذه السورة فيها لله الحمد فله الحمد فى الدنيا والآخرة وفيها للعبد السؤال وفيها العبادة لله وحده وللعبد الاستعانة فحق الرب حمده وعبادته وحده وهذان حمد الرب وتوحيده يدور عليهما جميع

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 31-35

الدين ومسألة الصفات الاختيارية هى من تمام حمده فمن لم يقر بها لم يمكنه الاقرار بأن الله محمود البتة ولا أنه رب العالمين فان الحمد ضد الذم والحمد هو الاخبار بمحاسن المحمود مع المحبة له والذم هو الاخبار بمساوى المذموم مع البغض له وجماع المساوى فعل الشر كما أن جماع المحاسن فعل الخير فاذا كان يفعل الخير بمشيئته وقدرته استحق الحمد فمن لم يكن له فعل اختيارى يقوم به بل ولا يقدر على ذلك لا يكون خالقا ولا ربا للعالمين (هذا ضمن رده على من ينكر صفات الله الاختيارية مثل المشيئة والكلام والارادة) وقوله {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}الأنعام1 {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ }الكهف1 ونحو ذلك فاذا لم يكن له فعل يقوم به باختياره امتنع ذلك كله فانه من المعلوم بصريح العقل أنه اذا خلق السموات والارض فلابد من فعل يصير به خالقا والا فلو استمر الامر على حال واحدة لم يحدث فعل لكان الامر على ما كان قبل أن يخلق وحينئذ فلم يكن المخلوق موجودا فكذلك يجب أن لا يكون المخلوق موجودا ان كان الحال فى المستقبل مثل ما كان فى الماضى لم يحدث من الرب فعل هو خلق السموات والأرض وقد قال تعالى {مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ }الكهف51 ومعلوم أنهم قد شهدوا نفس المخلوق فدل على أن الخلق لم يشهدوه وهو تكوينه لها واحداثه لها غيرالمخلوق الباقى وأيضا فانه قال { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ }الأعراف54 فالخلق لها كان فى ستة أيام وهى موجودة بعد المشيئة فالذى اختص بالمشيئة غير الموجود بعد المشيئة وكذلك {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ }الفاتحة1 فان الرحمن الرحيم هو الذى يرحم العباد بمشيئته وقدرته فان لم يكن له رحمة الا نفس ارادة قديمة او صفة أخرى قديمة لم يكن موصوفا بأنه يرحم من يشاء ويعذب من يشاء قال تعالى { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{20} يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ{21} العنكبوت 20-21 فالرحمة ضد التعذيب والتعذيب فعله وهو يكون بمشيئته كذلك الرحمة تكون بمشيئته كما قال {وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ} العنكبوت 21[1]

أمة محمد صلى الله عليه وسلم هم الحمادون

فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هم الحمادون لا بد لهم من حمد الله في كل صلاة وخطبة ولا بد لكل مصل في كل ركعة من أن يقول الحمد لله رب العالمين مالك يوم الدين فإذا قال الحمد لله رب العالمين قال الله حمدني عبدي فإذا قال الرحمن الرحيم قال أثنى علي عبدي فإذا قال مالك يوم الدين قال مجدني عبدي فهم يفتحون القيام في الصلاة بالتحميد ويختمونها بالتحميد وإذا رفعوا رؤوسهم من الركوع يقول إمامهم سمع الله لمن حمده ويقولون جميعا ربنا ولك الحمد ويختمون صلاتهم بتحميد يجعل التحيات له والصلوات والطيبات وأنواع تحميدهم لله مما يطول وصفه [2]

الحمد رأس الشكر

و إذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة فقد ثبت أنه رأس الشكر فهو أول الشكر و الحمد و إن كان على نعمة و على حكمة فالشكر بالأعمال هو على نعمته و هو عبادة له لإلهيته التى تتضمن حكمته فقد صار مجموع الأمور داخلا فى الشكر ولهذا عظم القرآن أمر الشكر و لم يعظم أمر الحمد مجردا إذ كان نوعا من الشكر و شرع الحمد الذي هو الشكر مقولا أمام كل خطاب مع التوحيد ففي الفاتحة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 259

[2] الجواب الصحيح ج: 5 ص: 270

الشكر مع التوحيد و الخطب الشرعية لا بد فيها من الشكر و التوحيد و الباقيات الصالحات نوعان فسبحان الله و بحمده فيها الشكر والتنزيه و التعظيم و لا إله إلاالله و الله أكبر فيها التوحيد و التكبير و قد قال تعالى {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } غافر65 و هل الحمد على الأمور الإختيارية كما قيل فى العزم أم عام فيه نظر ليس هذا موضعه وفى الصحيح أنه صلى الله عليه و وسلم إذا رفع رأسه من الركوع يقول ربنا و لك الحمد ملء السماء و ملء الأرض و ملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد و كلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت و لا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد هذا لفظ الحديث وأحق أفعل التفضيل و قد غلط فيه طائفة فقالوا حق ما قال العبد وهذا ليس بسديد فإن العبد يقول الحق والباطل بل حق ما يقوله الرب كما قال فالحق والحق أقول ولكن أحق خبر مبتدأ محذوف أي الحمد أحق ما قال العبد ففيه أن الحمد أحق ما قاله العبد ولهذا وجب فى كل صلاة [1]

أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الحمد الذي هو رأس الشكر وبين التوحيد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد ثم يقول اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقي الثوب الأبيض من الدنس ففي هذا الحمد رأس الشكر والاستغفار فإن ربنا غفور شكور فالحمد بإزاء النعمة والاستغفار بإزاء الذنوب وذلك تصديق قوله تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً } النساء79 ففي سيد الاستغفار أبوءلك بنعمتك علي وأبوء بذنبي وفي حديث أبي سعيد الحمد رأس الشكر والتوحيد كما جمع بينهما في أم القرآن فأولها تحميد وأوسطها توحيد وآخرها دعاء وكما في قوله هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين وفي حديث الموطأ افضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير من قالها كتب الله له ألف حسنة وحط عنه ألف سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثلها أو زاد عليه ومن قال في يوم مائة مرة سبحان الله وبحمده حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر [2]

الرضا كماله الحمد

الرضا وإن كان من أعمال القلوب فكماله هو الحمد حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضاء ولهذا جاء في الكتاب والسنة حمد الله على كل حال وذلك يتضمن بمقضياته وفي الحديث أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله في السراء والضراء وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أتاه الأمر يسره قال الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وإذا أتاه الأمر الذي يسؤوه قال الحمد لله على كل حال وفي مسند الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا قبض ولد العبد يقول الله لملائكته أقبضتم ولد عبدي فيقولون نعم فيقول أقبضتم ثمرة فؤاده فيقولون

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 213

[2] الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 156

نعم فيقول ماذا قال فيقولون حمدك واسترجعك فيقول ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد ونبينا صلى الله عليه وسلم هو صاحب لواء الحمد وأمته هم الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء والرضا والحمد على الضراء يوجبه شاهدان أحدهما علم العبد بأن الله سبحانه مستوجب لذلك مستحق له لنفسه فإنه احسن كل شيء خلقه وأتقن كل شيء وهو العليم الحكيم الخبير الرحيم والثاني علمه بأن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختياره لنفسه كما روى مسلم في صحيحه وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ليس ذلك إلا للمؤمن إن اصبته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له[1]

لطائف لغوية

1-الصفات فى المعارف للتوضيح لا للتخصيص وفى النكرات للتخصيص

وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ }الأنفال24 وهو لا يدعو الا الى ذلك والتقييد هنا لا مفهوم له فانه لا يقع دعاء لغير ذلك وهذا كقوله تعالى { وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً }النور33 فانهن اذا لم يردن تحصنا امتنع الاكراه ولكن فى هذا بيان الوصف المناسب للحكم ومنه قوله تعالى {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ }المؤمنون117 وقوله { وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ }البقرة61 فالتقييد فى جميع هذا للبيان والايضاح لا لإخراج فى وصف آخر ولهذا يقول من يقول من النحاة الصفات فى المعارف للتوضيح لا للتخصيص وفى النكرات للتخصيص يعنى فى المعارف التى لا تحتاج الى تخصيص كقوله { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} الاعلى 1-2 وقوله {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ}الأعراف157 وقوله {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{2} الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ{3} الفاتحة 2-3 والصفات فى النكرات اذا تميزت تكون للتوضيح أيضا[2]

2- العالمين يراد به جميع اصناف الخلق[3]

3- الخطاب هنا من باب خطاب التلوين والالتفات وهذا انتقال من الغيبة إلى الحضور كما في قوله { الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ{3}مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ{4} إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{5} اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6}الفاتحة 3-6[4]

---

[1] أمراض القلوب ج: 1 ص: 57
[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 61
[3] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 367
[4] اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 22

الفاتحة4

{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }

قوله تعالى{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }الفاتحة4وكونه مالكا ليوم الدين يوم يدين العباد بأعمالهم ان خيرا فخير وان شرا فشر {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{17} ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{18} يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ{19} الانفطار 17-19 فان الملك هو الذى يتصرف بأمر فيطاع ولهذا انما يقال ملك للحى المطاع الامر لا يقال فى الجمادات لصاحبها ملك انما يقال له مالك ويقال ليعسوب النحل ملك النحل لأنه يأمر فيطاع والمالك القادر على التصريف فى المملوك واذا كان الملك هو الآمر الناهى المطاع فان كان يأمر وينهى بمشيئته كان أمره ونهيه من الصفات الاختيارية وبهذا أخبر القرآن قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ }المائدة1 وان كان لا يأمر وينهى بمشيئته بل امره لازم له حاصل بغير مشيئته ولا قدرته لم يكن هذا مالكا ايضا بل هذا اولى أن يكون مملوكا فان الله تعالى خلق الانسان وجعل له صفات تلزمه كاللون والطول والعرض والحياء ونحو ذلك مما يحصل لذاته بغير اختياره فكان باعتبار ذلك مملوكا مخلوقا للرب فقط وانما يكون ملكا اذا كان يأمر وينهى باختياره فيطاع وان كان الله خالقا لفعله ولكل شىء ولكن المقصود أنه لا يكون ملكا الا من يأمر وينهى بمشيئته وقدرته بل من قال أنه لازم له بغير مشيئته أو قال أنه مخلوق له فكلاهما يلزمه أنه لا يكون ملكا واذا لم يمكنه أن يتصرف بمشيئته لم يكن مالكا أيضا فمن قال أنه لا يقوم به فعل اختيارى لم يكن عنده فى الحقيقة مالكا لشىء واذا اعتبرت سائر القرآن وجدت أنه من لم يقر بالصفات الاختيارية لم يقم بحقيقة الايمان ولا القرآن فهذا يبين أن الفاتحة وغيرها يدل على الصفات الاختيارية وقوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فيه اخلاص العبادة لله والاستعانة به وان المؤمنين لا يعبدون الا الله ولا يستعينون الا بالله فمن دعى غير الله من المخلوقين او استعان بهم من أهل القبور وغيرهم لم يحقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 ولا يحقق ذلك الا من فرق بين الزيارة الشرعية و الزيارة البدعية فان الزيارة الشرعية عبادة لله وطاعة لرسوله وتوحيد لله واحسان الى عباده وعمل صالح من الزائر يثاب عليه و الزيارة البدعية شرك بالخالق وظلم للمخلوق وظلم للنفس فصاحب الزيارة الشرعية هو الذى يحقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 ألا ترى أن اثنين لو شهدا جنازة فقام أحدهما يدعو للميت ويقول اللهم اغفر له وارحمه واعف عنه واكرم نزله ووسع مدخله واغسله بماء وثلج وبرد ونقه من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الابيض من الدنس وابدله دارا خيرا من داره واهلا خيرا من أهله واعذه من عذاب النار وعذاب القبر وافسح له فى قبره ونور له فيه ونحو ذلك من الدعاء له وقام الآخر فقال(يقصد من يدعو صاحب القبر) يا سيدى اشكو لك ديونى وأعدائى وذنوبى انا مستغيث بك مستجير بك اغثنى ونحو ذلك لكان الاول عابدا لله وحسنا الى خلقه محسنا الى نفسه بعبادة الله ونفعه عباده وهذا الثانى مشركا مؤذيا ظالما معتديا على الميت ظالما لنفسه فهذا بعض ما بين البدعية الشرعية من الفروق والمقصود ان صاحب الزيارة الشرعية اذا قال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 كان صادقا لأنه لم يعبد الا الله ولم يستعن الا به وأما صاحب الزيارة البدعية فانه عبد غير الله واستعان بغيره فهذا بعض ما يبين أن الفاتحة أم القرآن اشتملت على بيان المسألتين المتنازع فيهما مسألة الصفات الاختيارية و مسألة الفرق بين الزيارة الشرعية والزيارة البدعية والله تعالى هو المسؤول أن

يهدينا وسائر اخواننا الى صراطه المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ومما يوضح ذلك أن النبى قال اذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدنى عبدى فاذا قال الرحمن الرحيم قال أثنى على عبدى فاذا قال مالك يوم الدين قال الله مجدنى عبدى فذكر الحمد والثناء والمجد بعد ذلك يقول اياك نعبد واياك نستعين الى آخرها هذا فى أول القراءة فى قيام الصلاة ثم فى آخر القيام بعد الركوع يقول ربنا ولك الحمد ملء السماء وملء الارض الى قوله أهل الثناء والمجد احق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما اعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد وقوله احق ما قال العبد خبر مبتدأ محذوف أى هذا الكلام احق ما قال العبد فتبين ان حمد الله والثناء عليه احق ما قاله العبد وفى ضمنه توحيده له اذا قال ولك الحمد أى لك لا لغيرك وقال فى آخره لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت وهذا يقتضى انفراده بالعطاء والمنع فلا يستعان الا به ولا يطلب الا منه ثم قال ولا ينفع ذا الجد منك الجد فبين ان الانسان وان أعطى الملك والغنى والرئاسة فهذا لا ينجيه منك انما ينجيه الايمان والتقوى وهذا تحقيق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فكان هذا الذكر فى آخر القيام لأنه ذكر أول القيام وقوله أحق ما قال العبد يقتضى ان يكون حمد الله احق الاقوال بان يقوله العبد وما كان احق الاقوال كان أفضلها واوجبها على الانسان ولهذا افترض الله على عباده فى كل صلاة ان يفتتحوها بقولهم { الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} الفاتحة 2 وامرهم ايضا ان يفتتحوا كل خطبة بالحمد لله فامرهم ان يكون مقدما على كل كلام سواء كان خطابا للخالق او خطابا للمخلوق ولهذا يقدم النبى الحمد أمام الشفاعة يوم القيامة ولهذا أمرنا بتقديم الثناء على الله فى التشهد قبل الدعاء وقال النبى كل امر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم وأول من يدعى الى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء وقوله { الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ} الفاتحة 3 جعله ثناء وقوله { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}4 الفاتحة 4 جعله تمجيدا وقوله { الْحَمْدُ للَّهِ } الفاتحة 1 حمد مطلق فان الحمد اسم جنس والجنس له كمية وكيفية فالثناء كميته وتكبيره وتعظيمه كيفيته و المجد هو السعة والعلو فهو يعظم كيفيته وقدره وكميته المتصلة وذلك أن هذا وصف له بالملك و الملك يتضمن القدرة وفعل ما يشاء و { الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ} الفاتحة 3 وصف بالرحمة المتضمنة لاحسانه الى العباد بمشيئته وقدرته ايضا والخير يحصل بالقدرة والارادة التى تتضمن الرحمة فاذا كان قديرا مريدا للاحسان حصل كل خير وانما يقع النقص لعدم القدرة أو لعدم ارادة الخير فالرحمن الرحيم الملك قد اتصف بغاية ارادة الاحسان وغاية القدرة وذلك يحصل به خير الدنيا والآخرة وقوله { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}4 الفاتحة 4 مع أنه ملك الدنيا لأن يوم الدين لا يدعى أحد فيه منازعة وهو اليوم الاعظم فما الدنيا فى الآخرة الا كما يضع أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع والدين عاقبة افعال العباد وقد يدل بطريق التنبيه وبطريق العموم عند بعضهم على ملك الدنيا فيكون له الملك وله الحمد كما قال تعالى { لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }التغابن1 وذلك يقتضى أنه قادر على أن يرحم ورحمته واحسانه وصف له يحصل بمشيئته وهو من الصفات الاختيارية وفى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه الاستخارة فى الامور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن يقول اذا هم أحدكم بالامر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم انى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك واسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا اقدر وتعلم ولا اعلم وأنت علام الغيوب اللهم ان كنت تعلم أن هذا الامر ويسميه باسمه خيرا لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه وان كنت تعلم أن هذا الامر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان فسأله بعلمه وقدرته ومن فضله وفضله يحصل برحمته وهذه الصفات هى جماع

صفات الكمال لكن العلم له عموم التعليق يتعلق بالخالق والمخلوق والموجود والمعدوم وأما القدرة فانما تتعلق بالمخلوق وكذلك الملك انما يكون ملكا على المخلوقات فالفاتحة اشتملت على الكمال فى الارادة وهو الرحمة وعلى الكمال فى القدرة وهو ملك يوم الدين وهذا انما يتم بالصفات الاختيارية كما تقدم والله سبحانه وتعالى أعلم [1]

يوم الدين

أن أسم العبادة يتناول غاية الحب بغاية الذل وهكذا الدين الذي يدين به الناس في الباطن والظاهر لا بد فيه من الحب والخضوع بخلاف طاعتهم للملوك ونحوهم فإنها قد تكون خضوعا ظاهرا فقط والله سبحانه وتعالي سمى يوم القيامة يوم الدين كما قال {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }الفاتحة4 وهو كما روى عن ابن عباس وغيره من السلف يوم يدين الله العباد بأعمالهم إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم فلهذا من قال هو يوم الحساب ويوم الجزاء فقد ذكر بعض صفات الدين قال تعالي { كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ{9} وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ{10} كِرَاماً كَاتِبِينَ{11} يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ{12} إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14} يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ{15} وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ{16} وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{17} ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{18} يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ{19} الانفطار9-19 وقال تعالي { فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ{86} تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{87} الواقعة86-87 أي مقهورين ومدبرين ومجزيين[2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 262-267-(هذا ضمن رده على من ينكر صفات الله الاختيارية مثل المشيئة والكلام والارادة)

[2] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 34

الفاتحة5

{إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعينُ }

حقيقة العبودية لله

كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه امركم وعبادة الله تتضمن كمال محبة الله وكمال الذل لله فاصل الدين وقاعدته يتضمن أن يكون الله هو المعبود الذى تحبه القلوب وتخشاه ولا يكون لها إله سواه و والإله ما تألهه القلوب بالمحبة والتعظيم والرجاء والخوف والإجلال والإعظام ونحو ذلك والله سبحانه وتعالى أرسل الرسل بأنه لا إله إلا هو فتخلو القلوب عن محبة ما سواه بمحبته وبرجائه وعن سؤال ما سواه بسؤاله وعن العمل لما سواه بالعمل له وعن الإستعانة بما سواه بالإستعانة به ولهذا كان وسط الفاتحة {إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5[1]

والمؤمن يجد نفسه محتاجة إلى الله في تحصيل مطالبه ويجد في قلبه محبة الله غير هذا فهو محتاج إلى الله من جهة أنه ربه ومن جهة أنه إلهه قال تعالى {إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فلا بد أن يكون العبد عابدا لله ولا بد أن يكون مستعينا به ولهذا كان هذا فرضا على كل مسلم أن يقوله في صلاته وهذه الكلمة بين العبد وبين الرب [2]

عبادة وإستعانة

فتوحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة وإستعانة هي قطب رحى الدين وذلك أن العبد بل كل حى بل وكل مخلوق سوى الله هو فقير محتاج الى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره والمنفعة للحى هى من جنس النعيم واللذة والمضرة هى من جنس الألم والعذاب فلابد له من أمرين أحدهما هو المطلوب المقصود المحبوب الذى ينتفع ويلتذ به والثانى هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه وهذان هما الشيئان المنفصلان الفاعل والغاية فهنا أربعة أشياء أحدها أمر هو محبوب مطلوب الوجود والثانى أمر مكروه مبغض مطلوب العدم والثالث الوسيلة الى حصول المطلوب المحبوب والرابع الوسيلة الى دفع المكروه فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد بل ولكل حى لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها وأما ما ليس بحى فالكلام فيه على وجه آخر إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه أحدها أن الله تعالى هو الذى يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه وهو المعين على دفع المكروه فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعه دون ما سواه وهذا معنى قوله {إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجوه والمستعان هو الذى يستعان به على المطلوب فالأول من معنى الألوهية والثانى من معنى الربوبية إذ الاله هو الذى يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراما والرب هو الذى يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه الى جميع أحواله من العبادة وغيرها وكذلك قوله تعالى {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }هود88 وقوله{ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وقوله { عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }الممتحنة4 وقوله تعالى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 319-320

[2] منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 394

وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ }الفرقان58 وقوله تعالى { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }الرعد30 وقوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً {8} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً {9}المزمل8-9 فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين[1]

الربوبية تستلزم الألوهية

قال الله عز وجل فى أول السورة {الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الفاتحة2 فبدأ بهذين الاسمين الله والرب والله هو الاله المعبود فهذا الأسم أحق بالعبادة و لهذا يقال الله أكبر الحمد لله سبحان الله لا إله إلا الله و الرب هو المربى الخالق الرازق الناصر الهادى و هذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة ولهذا يقال {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ }نوح28 {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ }الأعراف23 { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي }القصص16 { ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا }آل عمران147 {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا }البقرة286 فعامة المسألة و الاستعانة المشروعة باسم الرب فالاسم الأول يتضمن غاية العبد و مصيره و منتهاه و ما خلق له و ما فيه صلاحه و كماله و هو عبادة الله والاسم الثاني يتضمن خلق العبد و مبتداه و هو أنه يربه و يتولاه مع أن الثانى يدخل فى الأول دخول الربوبية في الالهية و الربوبية تستلزم الألوهية أيضا والاسم {الرَّحْمـنِ}3{ يتضمن كمال التعلقين وبوصف الحالين فيه تتم سعادته في دنياه و أخراه ولهذا قال تعالى { وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }الرعد30 فذكر هنا الأسماء الثلاثة و ربى و الاله و قال { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }الرعد30 كما ذكر الأسماء الثلاثة فى أم القرآن لكن بدأ هناك باسم الله و لهذا بدأ فى السورة ب {إِيَّاكَ نَعْبُدُ }الفاتحة5 فقدم الاسم و ما يتعلق به من العبادة لأن تلك السورة فاتحة الكتاب و أم القرآن فقدم فيها المقصود الذي هو العلة الغائية فانها علة فاعلية للعلة الغائية و قد بسطت هذا المعنى فى مواضع فى أول التفسير و فى قاعدة المحبة والارادة و في غير ذلك ولما كان علم النفوس بحاجتهم و فقرهم الى الرب قبل علمهم بحاجتهم و فقرهم الى الاله المعبود و قصدهم لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته و كان الدعاء له و الاستعانة به و التوكل عليه فيهم أكثر من العبادة له و الانابة اليه ولهذا إنما بعث الرسل يدعونهم إلى عبادة الله و حده لاشريك له الذي هو المقصود المستلزم للاقرار بالربوبية و قد أخبر عنهم أنهم {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ }الزخرف87 و انهم إذا مسهم الضر ضل من يدعون إلا إياه {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ }الإسراء67و قال {وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ }لقمان32 فأخبر أنهم مقرون بربوبيته و أنهم مخلصون له الدين إذا مسهم الضر في دعائهم و استعانتهم ثم يعرضون عن عبادته في حال حصول أغراضهم وكثير من المتكلمين إنما يقررون الوحدانية من جهة الربوبية و أما الرسل فهم دعوا اليها من جهة الألوهية و كذلك كثير من المتصوفة المتعبدة و أرباب الأحوال إنما توجههم إلى الله من جهة ربوبيته لما يمدهم به فى الباطن من الأحوال التى بها يتصرفون و هؤلاء من جنس الملوك و قد ذم الله عز و جل فى القرآن هذا الصنف كثيرا فتدبر هذا فإنه تنكشف به أحوال قوم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 20 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 90

يتكلمون فى الحقائق و يعملون عليها و هم لعمري فى نوع من الحقائق الكونية القدرية الربوبية لا في الحقائق الدينية الشرعية الألهية و قد تكلمت على هذا المعنى في مواضع متعددة و هو أصل عظيم يجب الأعتناء به و الله سبحانه أعلم وذلك أن الانسان بل و جميع المخلوقات عباد لله تعالى فقراء إليه مماليك له و هو ربهم و مليكهم و إلههم لا إله إلا هو فالمخلوق ليس له من نفسه شيء أصلا بل نفسه و صفاته و أفعاله و ما ينتفع به أو يستحقه و غير ذلك إنما هو من خلق الله و الله عزوجل رب ذلك كله و مليكه و بارئه و خالقه و مصوره [1]

فإن المقصود هنا بيان حال العبد المحض الذي يعبده ويستعينه فيعمل له ويستعينه ويحقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وإن كانت الإلهية تتضمن الربوبية والربوبية تستلزم الإلهية فإن أحدهما إذا تضمن الآخر عند الانفراد لم يمنع أن يختص معناه عند الاقتران كما في قوله{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{1} مَلِكِ النَّاسِ{2} إِلَهِ النَّاسِ{3} الناس 1-3 وفي قوله {الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الفاتحة2 فجمع بين الاسمين اسم الإله واسم الرب فإن الإله هو المعبود الذي يستحق أن يعبد و الرب هو الذي يرب عبده فيدبره ولهذا كانت العبادة متعلقة باسم الله والسؤال متعلقا باسم الرب فإن العبادة هي الغاية التي لها خلق الخلق والإلهية هي الغاية والربوبية تتضمن خلق الخلق وانشاءهم فهو متضمن ابتداء حالهم والمصلي إذا قال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فبدأ بالمقصود الذي هو الغاية على الوسيلة التي هي البداية فالعبادة غاية مقصودة والاستعانة وسيلة إليها تلك حكمة وهذا سبب والفرق بين العلة الغائية والعلة الفاعلية معروف ولهذا يقال أول الفكرة آخر العمل وأول البغية آخر الدرك فالعلة الغائية متقدمة في التصور والارادة وهي متأخرة في الوجود فالمؤمن يقصد عبادة الله ابتداء وهو يعلم أن ذلك لا يحصل إلا بإعانته فيقول {الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الفاتحة2 ولما كانت العبادة متعلقة باسم الله تعالى جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم مثل كلمات الأذان الله أكبر الله أكبر ومثل الشهادتين أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمدا رسول الله ومثل التشهد التحيات لله ومثل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله و الله أكبر وأما السؤال فكثيرا ما يجيء باسم الرب كقول آدم وحواء { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ }الأعراف23 وقول نوح { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ }هود47 وقول موسى { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي }القصص16[2]

وأما المقاصد فالقرآن أخبر بالعلم بالله والعمل له فجمع بين قوتى الإنسان العلمية والعملية الحسية والحركية الإرادية الإدراكية والإعتمادية القولية والعملية حيث قال { اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ }البقرة21 فالعبادة لابد فيها من معرفته والإنابة اليه والتذلل له والإفتقار اليه وهذا هو المقصود واذا حصل الاعتراف بالرب والاقرار به من غير عبادة وانابة كان وبالا على صاحبه وشقاء له كما جاء فى الحديث أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه كإبليس اللعين فإنه معترف بربه مقر بوجوده لكن لما لم يعبده كان رأس الأشقياء وكل من شقى فباتباعه له كما قال {قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ }الأعراف18 فلا بد أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه مع أنه معترف بالرب مقر بوجوده وانما أبى واستكبر عن الطاعة والعبادة والقوة العلمية

---

[1] **مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 12-16**

[2] الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 331 -333 و **مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 285-286**

مع العملية بمنزلة الفاعل والغاية ولهذا قيل العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر والمراد بالعمل هنا عمل القلب الذى هو انابته الى الله وخشيته له حتى يكون عابدا له فالرسل والكتب المنزلة أمرت بهذا وأوجبته بل هو رأس الدعوة ومقصودها وأصلها والطريقة النبوية القرآنية السنية الجماعية فيها العلم والعمل كاملين ففاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }البقرة21 وقال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وذلك يتضمن الإقرار به وعبادته وحده فإن الإله هو المعبود ولم يقل حتى يشهدوا أن لارب إلا الله فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له التى لها خلق الخلق وبها أمروا وكذلك قوله لمعاذ إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال نوح عليه السلام {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ }نوح3 وكذلك الرسل فى سورة الأعراف وغيرها وقال تعالى{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5[1]

سر الكلمات الكونيات و التكليفيات

فالله سبحانه هو المستحق أن يعبد لذاته قال تعالى { الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{2} الفاتحة 2 فذكر الحمد بالألف واللام التى تقتضى الإستغراق لجميع المحامد فدل على أن الحمد كله لله ثم حصره فى قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{5} الفاتحة 5 فهذا تفصيل لقوله الحمد لله رب العالمين فهذا يدل على أنه لامعبود إلا الله وأنه لايستحق أن يعبد أحد سواه فقوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ{5} الفاتحة 5 إشارة إلى عبادته بما إقتضته إلهيته من المحبة والخوف والرجاء والأمر والنهى { وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{5} الفاتحة 5 إشارة إلى ما إقتضته الربوبية من التوكل والتفويض والتسليم لأن الرب سبحانه وتعالى هو المالك وفيه أيضا معنى الربوبية والإصلاح والمالك الذى يتصرف فى ملكه كما يشاء فإذا ظهر للعبد من سر الربوبية أن الملك والتدبير كله بيد الله تعالى قال تعالى {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }الملك1 فلا يرى نفعا ولا ضرا ولا حركة ولا سكونا ولا قبضا ولا بسطا ولا خفضا ولا رفعا إلا والله سبحانه وتعالى فاعله وخالقه وقابضه وباسطه ورافعه وخافضه فهذا الشهود هو سر الكلمات الكونيات وهو علم صفة الربوبية والأول هو علم صفة الإلهية وهو كشف سر الكلمات التكليفيات فالتحقيق بالأمر والنهى والمحبة والخوف والرجاء يكون عن كشف علم الإلهية والتحقيق بالتوكل والتفويض والتسليم يكون بعد كشف علم الربوبية وهو علم التدبير السارى فى الأكوان كما قال عز وجل{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ }النحل40 فإذا تحقق العبد لهذا المشهد ووفقه لذلك بحيث لا يحجبه هذا المشهد عن المشهد الأول فهو الفقيه فى عبوديته فإن هذين المشهدين عليهما مدار الدين فإن جميع مشاهد الرحمة واللطف والكرم والجمال داخل فى مشهد الربوبية ولهذا قيل أن هذه الآية جمعت جميع أسرار اقتضى عبوديته بالتفويض والتسليم وترك الاختيار وجميع العبوديات داخلة فى ذلك ومن غاب عن هذا المشهد وعن المشهد الأول ورأى قيام الله عز وجل على جميع الأشياء وهو القيام على كل نفس بما كسبت وتصرفه فيها وحكمه عليها فرأى الأشياء كلها منه صادرة عن نفاذ حكمه وإرادته القدرية فغاب بما لاحظ عن التمييز والفرق وعطل الأمر والنهى والنبوات ومرق من الإسلام مروق السهم من الرمية وإن كان ذلك المشهد قد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 10-14

أدهشه وغيب عقله لقوة سلطانه الوارد وضعف قوة البصيرة أن يجمع بين المشهدين فهذا معذور منقوص الا من جمع بين المشهدين الأمر الشرعى ومشهد الأمر الكونى الإرادى وقد زلت فى هذا المشهد أقدام كثيرة من السالكين لقلة معرفتهم بما بعث الله به المرسلين وذلك لأنهم عبدوا الله على مرادهم منه ففنوا بمرادهم عن مراد الحق عز وجل منهم لأن الحق يغنى بمراده ومحبوبه ولو عبدوا الله على مراده منهم لم ينلهم شىء من ذلك لأن العبد إذا شهد عبوديته ولم يكن مستيقظا لأمر سيده لا يغيب بعبادته عن معبوده ولا بمعبوده عن عبادته بل يكون له عينان ينظر بأحدهما الى المعبود كأنه يراه كما قال صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك والأخرى ينظر بها الى أمر سيده ليوقعه على الأمر الشرعى الذى يحبه مولاه ويرضاه فإذا تقرر هذا فالشرك أن كان شركا يكفر به صاحبه وهو نوعان شرك فى الإلهية وشرك فى الربوبية فأما الشرك فى اللألهية فهو أن يجعل لله ندا أى مثلا فى عبادته أو محبته أو خوفه أو رجائه أو إنابته فهذا هو الشرك الذى لا يغفره الله الا بالتوبة منه قال تعالى {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ }الأنفال38 وهذا هو الذى قاتل عليه رسول الله مشركى العرب لأنهم أشركوا فى اللألهية قال الله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ }البقرة165 الآية {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى }الزمر3 الآية وقالوا {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ }ص5 وقال تعالى {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ{24} ق24 الى قوله {الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ }ق26 وقال النبى لحصين كم تعبد قال ستة فى الأرض وواحدا فى السماء قال فمن الذى تعد لرغبتك ورهبتك قال الذى فى السماء قال ألا تسلم فأعلمك كلمات فأسلم فقال النبى قل اللهم ألهمنى رشدى وقنى شر نفسى وأما الربوبية فكانوا مقرين بها قال الله تعالى {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ }الزخرف9 وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هى التى تنزل الغيث وترزق العالم وتدبره وإنما كان شركهم كما ذكرنا اتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئا من دون الله كما يحب الله تعالى فقد أشرك وهذا كقوله { قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ{96} تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{97} إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ْعَالَمِينَ{98}الشعراء 96-98 وكذا من خاف أحدا كما يخاف الله أو رجاه كما يرجو الله وما أشبه ذلك وأما النوع الثانى فالشرك فى الربوبية فإن الرب سبحانه هو المالك المدبر المعطى المانع الضار النافع الخافض الرافع المعز المذل فمن شهد أن المعطى أو المانع أو الضار أو النافع أو المعز أو المذل غيره فقد أشرك بربوبيته ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك فلينظر الى المعطى الأول مثلا فيشكره على ما أولاه من النعم وينظر الى من أسدى اليه المعروف فيكافيه عليه لقوله عليه السلام من أسدى اليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه لأن النعم كلها لله تعالى كما قال تعالى {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ }النحل53 وقال تعالى {كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ }الإسراء20 فالله سبحانه هو المعطى على الحقيقة فإنه هو الذى خلق الأرزاق وقدرها وساقها الى من يشاء من عباده فالمعطى هو الذى أعطاه وحرك قلبه لعطاء غيره فهو الأول والآخر ومما يقوى هذا المعنى قوله لابن عباس رضى الله عنهما واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ولو إجتمعوا على أن يضروك لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف قال الترمذى هذا حديث صحيح فهذا يدل على أنه لا ينفع فى الحقيقة الا الله ولا يضره غيره وكذا جميع ما ذكرنا فى مقتضى الربوبية فمن سلك هذا المسلك العظيم إستراح من عبودية الخلق ونظره اليهم وأراح الناس من لومه وذمه اياهم وتجرد التوحيد فى قلبه فقوى إيمانه وإنشرح صدره وتنور قلبه ومن توكل على

الله فهو حسبه ولهذا قال الفضيل إبن عياض رحمه الله من عرف الناس استراح يريد والله أعلم أنهم لا ينفعون ولا يضرون وأما الشرك الخفى فهو الذى لا يكاد أحد أن يسلم منه مثل أن يحب مع الله غيره فإن كانت محبته لله مثل حب النبيين والصالحين والأعمال الصالحة فليست من هذا الباب لأن هذه تدل على حقيقة المحبة لأن حقيقة المحبة أن يحب المحبوب وما أحبه ويكره ما يكرهه ومن صحت محبته إمتنعت مخالفته لأن المخالفة انما تقع لنقص المتابعة ويدل على نقص المحبة قول الله تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }آل عمران31 الآية فليس الكلام فى هذا إنما الكلام فى محبة تتعلق بالنفوس لغير الله تعالى فهذا لا شك أنه نقص فى توحيد المحبة لله وهو دليل على نقص محبة الله تعالى إذ لو كملت محبته لم يحب سواه ولا يرد علينا الباب الأول لأن ذلك داخل فى محبته وهذا ميزان لم يجر عليك كلما قويت محبة العبد لمولاه صغرت عنده المحبوبات وقلت وكلما ضعفت كثرت محبوباته وإنتشرت وكذا الخوف والرجاء وما أشبه ذلك فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئا سواه قال الله تعالى {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً }الأحزاب39 وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف كما ذكرنا فى المحبة وكذا الرجاء وغيره فهذا هو الشرك الخفى الذى لا يكاد أحد أن يسلم منه إلا من عصمة الله تعالى وقد روى أن الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل وطريق التخلص من هذه الآفات كلها الإخلاص لله عز وجل قال الله تعالى { فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً }الكهف110 ولا يحصل الإخلاص الا بعد الزهد ولا زهد الا بتقوى والتقوى متابعة الأمر والنهى [1]

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{5}الفاتحة فإنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة الا الله وقد يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه وكذلك الإستنصار قال الله تعالى { وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ }الأنفال72 والنصر المطلق هو خلق ما به يغلب العدو ولا يقدر عليه إلا الله [2]

لابد لكل عبد من معبود مستعان

أن كل إنسان فهو همام حارث حساس متحرك بالإدراة بل كل حى فهو كذلك له علم وعمل بإرادته والإرادة هى المشيئة والإختيار ولا بد فى العمل الإرادى الإختيارى من مراد وهو المطلوب ولا يحصل المراد إلا بأسباب ووسائل تحصله فإن حصل بفعل العبد فلا بد من قدرة وقوة وإن كان من خارج فلا بد من فاعل غيره وإن كان منه ومن الخارج فلا بد من الأسباب كالآلات ونحو ذلك فلابد لكل حى من إرادة ولا بد لكل مريد من عون يحصل به مراده فصار العبد مجبولا على أن يقصد شيئا ويريده ويستعين بشىء ويعتمد عليه فى تحصيل مراده هذا أمر حتم لازم ضرورى فى حق كل إنسان يجده فى نفسه لكن المراد والمستعان على قسمين منه ما يراد لغيره ومنه ما يراد لنفسه والمستعان منه ما هو المستعان لنفسه ومنه ما هو تبع للمستعان وآلة له فمن المراد ما يكون هو الغاية المطلوب فهو الذى يذل له الطالب ويحبه وهوالإله المقصود ومنه ما يراد لغيره وهو بحيث يكون المراد هو ذلك الغير فهذا مراد بالعرض ومن المستعان ما يكون هو الغاية التى يعتمد عليه العبد ويتوكل عليه ويعتضد به ليس عنده فوقه غاية فى الإستعانة ومنه ما يكون تبعا لغيره بمنزلة الأعضاء مع القلب والمال مع المالك والآلات مع الصانع فإذا تدبر الإنسان حال نفسه وحال جميع

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 89-93
[2] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 113

الناس وجدهم لا ينفكون عن هذين الأمرين لابد للنفس من شيء تطمئن اليه وتنتهى اليه محبتها وهو الهها ولا بد لها من شيء تثق به وتعتمد عليه فى نيل مطلوبها هو مستعانها سواء كان ذلك هو الله أو غيره وإذا فقد يكون عاما وهو الكفر كمن عبد غير الله مطلقا وسأل غير الله مطلقا مثل عباد الشمس والقمر وغير ذلك الذين يطلبون منهم الحاجات ويفزعون اليهم فى النوائب وقد يكون خاصا فى المسلمين مثل من غلب عليه حب المال أو حب شخص أو حب الرياسة حتى صار عبد ذلك كما قال تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد الخميصة تعس عبد الخميلة إن أعطى رضى وإن منع سخط تعس وإنتكس وإذا شيك فلا إنتقش وكذلك من غلب عليه الثقة بجاهه وماله بحيث يكون عنده مخدومه من الرؤساء ونحوهم أو خادمه من الأعوان والأجناد ونحوهم أو أصدقائه أو أمواله هى التى تجلب المنفعة الفلانية وتدفع المضرة الفلانية فهو معتمد عليها ومستعين بها والمستعان هو مدعو ومسؤل وما أكثر ما تسلتزم العبادة الإستعانة فمن اعتمد عليه القلب فى رزقه ونصره ونفعه وضره خضع له وذل وانقاد وأحبه من هذه الجهة وإن لم يحبه لذاته لكن قد يغلب عليه الحال حتى يحبه لذاته وينسى مقصوده منه كما يصيب كثيرا ممن يحب المال أو يحب من يحصل له به العز والسلطان وأما من أحبه القلب وأراده وقصده فقد لا يستعينه ويعتمد عليه إلا إذا إستشعر قدرته على تحصيل مطلوبه كإستشعار المحب قدرة المحبوب على وصله فإذا إستشعر قدرته على تحصيل مطلوبه إستعانه والا فلا فالاقسام ثلاثة فقد يكون محبوبا غير مستعان وقد يكون مستعانا غير محبوب وقد يجتمع فيه الأمران فإذا علم أن العبد لا بد له فى كل وقت وحال من منتهى يطلبه هو الهه ومنتهى يطلب منه هو مستعانه وذلك هو صمده الذى يصمد اليه فى إستعانته وعبادته تبين أن قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{5} الفاتحة 5 كلام جامع محيط أولا وآخرا لا يخرج عنه شيء فصارت الأقسام أربعة إما أن يعبد غير الله ويستعينه وإن كان مسلما فالشرك فى هذه الأمة اخفى من دبيب النمل وإما أن يعبده ويستعين غيره مثل كثير من أهل الدين يقصدون طاعة الله ورسوله وعبادته وحده لا شريك له وتخضع قلوبهم لمن يستشعرون نصرهم ورزقهم وهدايتهم من جهته من الملوك والاغنياء والمشائخ وإما أن يستعينه وإن عبد غيره مثل كثير من ذوى الأحوال وذوى القدرة وذوى السلطان الباطن أو الظاهر وأهل الكشف والتأثير الذين يستعينونه ويعتمدون عليه ويسألونه ويلجأون اليه لكن مقصودهم غير ما أمر الله به ورسوله وغير إتباع دينه وشريعته التى بعث الله بها رسوله والقسم الرابع الذين لا يعبدون إلا إياه ولا يستعينون إلا به وهذا القسم الرباعى قد ذكر فيما بعد أيضا لكنه تارة يكون بحسب العبادة والإستعانة وتارة يكون بحسب المستعان فهنا هو بحسب المعبود والمستعان لبيان أنه لابد لكل عبد من معبود مستعان وفيما بعد بحسب عبادة الله وإستعانته فإن الناس فيها على أربعة أقسام[1]

فالعبادة والإستعانة فلله وحده لا شريك له كما قال{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[2]

كل معبود من دون الله باطل

ان فقر الاشياء الى خالقها لازم لها لا يحتاج الى علة كما أن غنى الرب لازم لذاته لا يفتقر فى اتصافه بالغنى الى علة وكذلك المخلوق لا يفتقر فى اتصافه بالفقر الى علة بل هو فقير لذاته لا تكون ذاته الا فقيرة فقرا لازما لها ولا يستغنى الا وهذا من معانى الصمد وهو الذى يفتقر اليه كل شيء

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 34-36

[2] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 69

ويستغنى عن كل شيء بل الاشياء مفتقرة من جهة ربوبيته ومن جهة الهيته فما لا يكون به لا يكون وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم وهذا تحقيق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فلو لم يخلق شيئا بمشيئته وقدرته لم يوجد شيء وكل الأعمال ان لم تكن لأجله فيكون هو المعبود المقصود المحبوب لذاته والا كانت أعمالا فاسدة فان الحركات تفتقر الى العلة الغائية كما افتقرت الى العلة الفاعلية بل العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلا ولولا ذلك لم يفعل فلولا أنه المعبود المحبوب لذاته لم يصلح قط شيء من الأعمال والحركات بل كان العالم يفسد وهذا معنى قوله {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا }الأنبياء22 ولم يقل لعدمتا وهذا معنى قول لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل وهو كالدعاء المأثور أشهد أن كل معبود من لدن عرشك الى قرار أرضك باطل الا وجهك الكريم ولفظ الباطل يراد به المعدوم ويراد به ما لا ينفع كقول النبى كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل الا رميه بقوسه وتاديبه فرسه وملاعبته لزوجته فانهن من الحق وقوله عن عمر رضى الله عنه ان هذا الرجل لا يحب الباطل ومنه قول القاسم بن محمد لما سئل عن الغناء قال اذا ميز الله يوم القيامة الحق من الباطل فى ايهما يجعل الغناء قال السائل من الباطل قال فماذا بعد الحق الا الضلال ومنه قوله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ }الحج62 فان الآلهة موجودة ولكن عبادتها ودعاؤها باطل لا ينفع والمقصود منها لا يحصل فهو باطل واعتقاد الوهيتها باطل اى غير مطابق واتصافها بالالهية فى أنفسها باطل لا بمعنى أنه معدوم ومنه قوله تعالى {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ }الأنبياء18 وقوله {وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً }الإسراء81 فان الكذب باطل لأنه غير مطابق وكل فعل ما لا ينفع باطل لأنه ليس له غاية موجودة محمودة فقول النبى أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل هذا معناه ان كل معبود من دون الله باطل كقوله {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ }لقمان30 وقال تعالى {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ {31} فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ{32} يونس31-32 وقد قال قبل هذا{ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ }يونس30 كما قال فى الانعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ}الأنعام61 وقال {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ }محمد3 ودخل عثمان أو غيره على ابن مسعود وهو مريض فقال كيف تجدك قال أجدنى مردودا الى الله مولاى الحق قال تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وارجلهم بما كانوا يعملون {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{24}يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ }النور24-25 وقد اقروا بوجوده فى الدنيا لكن فى ذلك اليوم يعلمون أنه الحق المبين دون ما سواه ولهذا قال { هُوَ الْحَقُّ }النور 25 بصيغة الحصر فانه يومئذ لا يبقى أحد يدعى فيه الالهية ولا أحد يشرك بربه احدا[1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 515-517

العلة الغائية هي تقرير ألوهيته وعبادته وطاعته والعلة الفاعليةهي تقرير وحدانية كونه خالقا وربا والعلة الغائية هى المقصودة التى هى أعلى وأشرف بل هى علة فاعلية للعلة الفاعلية ولهذا قدمت فى مثل قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وفى مثل قوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123[1]

صلاح العبد

فإن ما في القلب من معرفة الله ومحبته وخشيته وإخلاص الدين له وخوفه ورجائه والتصديق بأخباره وغير ذلك مما يتباين الناس فيه ويتفاضلون تفاضلا عظيما ويقوي ذلك كلما ازداد العبد تدبرا للقرآن وفهما ومعرفة بأسماء الله وصفاته وعظمته وتفقره إليه في عبادته واشتغاله به بحيث يجد اضطراره إلى أن يكون تعالى معبوده ومستغاثه أعظم من اضطراره إلى الأكل والشرب فإنه لا صلاح له إلا بأن يكون الله هو معبوده الذي يطمئن إليه ويأنس به ويلتذ بذكره ويستريح به ولا حصول لهذا إلا بإعانة الله ومتى كان للقلب إله غير الله فسد وهلك هلاكا لا صلاح معه ومتى لم يعنه الله على ذلك لم يصلحه ولا حول ولا قوة إلا به ولا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه ولهذا يروى أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب جمع علمها في الكتب الأربعة وجمع الكتب الأربعة في القرآن وجمع علم القرآن في المفصل وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 ونظير ذلك قوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123وقوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }الرعد30 وقوله { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ{3}الطلاق2 وقد قال تعالى{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله [2]

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق أفضل الأمة حيث علمه أن يقول اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه وأن اقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى مسلم فيستغفر مما مضى ويستعيذ مما يستقبل فيكون من حزب السعداء وإذا علم أن الحسنة من الله الجزاء والعمل سأله أن يعينه على فعل الحسنات بقوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وبقوله اهدنا الصراط المستقيم [3]

فلا خالق إلا الله ولا رب إلا الله ولا يجيب المضطرين ويرزق العباد إلا الله فهو الذى يعطى ويمنع ويخفض ويرفع ويعز ويذل وهو الذى يستحق أن يستعان به ويتوكل عليه ويستعاذ به ويلتجىء العباد إليه فإنه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد كما قال تعالى فى فاتحة الكتاب {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5[4]

الاخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة

---

[1] **مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 30**

[2] لفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 25 و **مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 607**

[3] **الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 43**

[4] ب مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 489

ومتى اهتمت الولاة باصلاح دين الناس صلح للطائفتين دينهم ودنياهم وإلا اضطربت الأمور عليهم وملاك ذلك كله صلاح النية للرعية وإخلاص الدين كله لله والتوكل عليه فان الاخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة كما أمرنا ان نقول فى صلاتنا {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فان هاتين الكلمتين قد قيل انهما يجمعان معانى الكتب المنزلة من السماء وقد روى أن النبى كان مرة فى بعض مغازيه فقال ياماالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين فجعلت الرءوس تندر عن كواهلها وقد ذكر ذلك فى غير موضع من كتابه كقوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123وقوله تعالى { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }هود88 وكان صلى الله عليه وسلم إذا ذبح أضحيته يقول اللهم منك ولك [1]

فأمره سبحانه بتقواه واتباع ما يوحى إليه وأمره بالتوكل كما جمع بين هذين الأصلين في غير موضع كقوله تعالى في الفاتحة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وعلم القرآن جمع في الفاتحة وعلم الفاتحة في هذين الأصلين عبادة الله والتوكل عليه[2]

فى حديث أبى هريرة رضى الله عنهما الذى رواه الترمذى وصححه قيل يا رسول الله ما أكثر ما يدخل الناس الجنة قال تقوى الله وحسن الخلق قيل وما أكثر ما يدخل الناس النار قال الأجوفان الفم والفرج وفى الصحيح عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا فجعل كمال الإيمان فى كمال حسن الخلق ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله وتفصيل أصول التقوى وفروعها لا يحتمله هذا الموضوع فإنها الدين كله لكن ينبوع الخير وأصله إخلاص العبد لربه عبادة وإستعانة كما فى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وفى قوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وفى قوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }هود88 وفى قوله { فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ }العنكبوت17 بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين إنتفاعا بهم أو عملا لأجلهم ويجعل همته ربه تعالى وذلك بملازمة الدعاء له فى كل مطلوب من فاقة وحاجة ومخافة وغير ذلك[3]

وقد أمر الله تعالى العباد كلهم بالصلاة له ومناجاته وأمر كلا منهم أن يقولوا {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5[4]

فإنه لا يقبل دين إلا دين الإسلام وهو الإستسلام لخلقه وأمره فيسلم لما قدره وقضاه ويسلم لما يأمر به ويحبه وهذا نفعله وندعو إليه وذاك نسلمه ونتوكل فيه عليه فنرضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ونقول فى صلاتنا{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 مثل قوله تعالى { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وقوله تعالى{ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }البقرة153 وقوله تعالى {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ{114} وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ{115}هود114 -115[5]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 361 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 110 *ودقائق التفسير ج: 1 ص: 212*

[2] رسالة في تحقيق التوكل ج: 1 ص: 91

[3] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 659

[4] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 74

[5] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 379

توحيد الربوبية والألوهية

أن قول القائل { لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ }الأنبياء87 فيه إفراد الإلهية وحده وذلك يتضمن التصديق قولا وعملا فالمشركون كانوا يقرون بأن الله رب كل شيء لكن كانوا يجعلون معه آلهة أخرى فلا يخصونه بالإلهية وتخصيصه بالإلهية يوجب أن لا يعبد إلا إياه وأن لا يسأل غيره كما في قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فإن الإنسان قد يقصد سؤال الله وحده والتوكل عليه لكن في أمور لا يحبها الله بل يكرهها وينهى عنها فهذا وإن كان مخلصا له في سؤاله والتوكل عليه لكن ليس هو مخلصا في عبادته وطاعته وهذا حال كثير من أهل التوجهات الفاسدة أصحاب الكشوفات والتصرفات المخالفة لأمر الله ورسوله فإنهم يعانون على هذه الأمور وكثير منهم يستعين الله عليها لكن لما لم تكن موافقة لأمر الله ورسوله حصل لهم نصيب من العاجلة وكانت عاقبتهم عاقبة سيئة قال تعالى{وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً }الإسراء67 وقال تعالى {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ }يونس12 وطائفة أخرى يقصدون طاعة الله ورسوله لكن لا يحققون التوكل عليه والاستعانة به فهؤلاء يثابون على حسن نيتهم وعلى طاعتهم لكنهم مخذولون فيما يقصدونه إذ لم يحققوا الاستعانة ب الله والتوكل عليه ولهذا يبتلى الواحد من هؤلاء بالضعف والجزع تارة وبالإعجاب أخرى فإن لم يحصل مراده من الخير كان لضعفه وربما حصل له جزع فإن حصل مراده نظر إلى نفسه وقوته فحصل له إعجاب وقد يعجب بحاله فيظن حصول مراده فيخذل قال تعالى {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ }التوبة25 إلى قوله {ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }التوبة27 وكثيرا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب فالرياء من باب الاشراك بالخلق والعجب من باب الاشراك بالنفس وهذا حال المستكبر فالمرائي لا يحقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ }الفاتحة5 والمعجب لا يحقق قوله { وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فمن حقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ }الفاتحة5 خرج عن الرياء ومن حقق قوله{ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 خرج عن الإعجاب وفي الحديث المعروف ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه وشر من هؤلاء وهؤلاء من لا تكون عبادته ولا استعانته ب الله بل يعبد غيره ويستعين بغيره وهؤلاء المشركون من الوجهين ومن هؤلاء من يكون شركه بالشياطين كأصحاب الأحوال الشيطانية فيفعلون ما تحبه الشياطين من الكذب والفجور ويدعونه بأدعية تحبها الشياطين ويعزمون بالعزائم التي تطيعها الشياطين مما فيها إشراك بالله كما قد بسط الكلام عليهم في مواضع أخر وهؤلاء قد يحصل لهم من الخوارق ما يظن أنه من كرامات الأولياء وإنما هو من أحوال السحرة والكهان ولهذا يجب الفرق بين الأحوال الإيمانية القرآنية والأحوال النفسانية والأحوال الشيطانية[1]

ان الايمان والتوحيد لابد فيهما من عمل القلب كحب القلب فلا بد من اخلاص الدين لله والدين لا يكون دينا الا بعمل فان الدين يتضمن الطاعة والعبادة وقد انزل الله عز وجل سورتى الاخلاص قل يا ايها الكافرون وقل هو الله احد احداهما فى توحيد القول والعلم و الثانية فى توحيد العمل والارادة فقال فى الأول { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص1-4 فأمره ان يقول هذا التوحيد وقال في الثانى { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا

1- [1] الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 327-328

تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6} الكافرون1-6 فأمره ان يقول ما يوجب البراءة من عباده غير الله واخلاص العبادة لله والعبادة اصلها القصد والارادة والعبادة اذا افردت دخل فيها التوكل ونحوه واذا قرنت بالتوكل صار التوكل قسيما لها كما ذكرناه فى لفظ الايمان قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 وقال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ }البقرة21 فهذا ونحوه يدخل فيه فعل المأمورات وترك المحظورات والتوكل من ذلك وقد قال فى موضع آخر {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5وقال {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 ومثل هذا كثير ما يجيء فى القرآن تتنوع دلالة اللفظ فى عمومه وخصوصه بحسب الافراد والاقتران كلفظ المعروف والمنكر فانه قد قال {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ }آل عمران110 وقال {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ }التوبة71 وقال { يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ }الأعراف157 فالمنكر يدخل فيه ما كرهه الله كما يدخل فى المعروف ما يحبه الله وقد قال فى موضع آخر { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ }العنكبوت45 فعطف المنكر على الفحشاء ودخل في المنكر هنا البغي وقال فى موضع آخر {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ }النحل90 فقرن بالمنكر الفحشاء والبغي ومن هذا الباب لفظ الفقراء والمساكين اذا افرد احدهما دخل فيه الاخر واذا قرن احدهما بالآخر صار بينهما فرق لكن هناك احد الاسمين اعم من الآخر وهنا بينهما عموم وخصوص فمحبة الله وحده والتوكل عليه وحده وخشية الله وحده ونحو هذا كل هذا يدخل فى توحيد الله تعالى قال تعالى فى المحبة {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ }البقرة165 وقال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ }التوبة24 وقال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ }النور52 فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده وقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ }التوبة59 وقال تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8}الشرح7-8 فجعل التحسب والرغبة الى الله وحده وهذه الامور مبسوطة فى غير هذا الموضع و المقصود هنا ان قول القائل { لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ }الأنبياء87 فيه افراد الالهية لله وحده وذلك يتضمن التصديق لله قولا وعملا فالمشركون كانوا يقرون بان الله رب كل شيء لكن كانوا يجعلون معه آلهة اخرى فلا يخصونه بالالهية وتخصيصه بالالهية يوجب ان لا يعبد الا اياه وان لا يسأل غيره كما فى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فان الانسان قد يقصد سؤال الله وحده والتوكل عليه لكن فى امور لا يحبها الله بل يكرهها وينهى عنها فهذا وان كان مخلصا له في سؤاله والتوكل عليه لكن ليس هو مخلصا في عبادته وطاعته وهذا حال كثير من اهل التوجيهات الفاسدة اصحاب الكشوفات والتصرفات المخالفة لامر الله ورسوله فانهم يعانون على هذه الامور وكثير منهم يستعين الله عليها لكن لما لم تكن موافقة لامر الله ورسوله حصل لهم نصيب من العاجلة وكانت عاقبتهم عاقبة سيئة قال تعالى {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً }الإسراء67 ا{وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ }يونس12 وطائفة اخرى قد يقصدون طاعة الله ورسوله لكن لا يحققون التوكل عليه والاستعانة به فهؤلاء يثابون على حسن نيتهم وعلى طاعتهم لكنهم مخذولون فيما يقصدونه اذ لم يحققوا الاستعانة بالله

والتوكل عليه ولهذا يبتلى الواحد من هؤلاء بالضعف والجزع تارة وبالاعجاب اخرى فان لم يحصل مراده من الخير كان لضعفه وربما حصل له جزع فان حصل مراده نظر الى نفسه وقوته فحصل له اعجاب وقد يعجب بحاله فيظن حصول مراده فيخذل قال تعالى { وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ }التوبة25 الى قوله {ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }التوبة27 وكثيرا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب فالرياء من باب الاشراك بالخلق والعجب من باب الاشراك بالنفس وهذا حال المستكبر فالمرائي لا يحقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ }الفاتحة5 والمعجب لا يحقق قوله { وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فمن حقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ }الفاتحة5 خرج عن الرياء ومن حقق قوله { وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 خرج عن الاعجاب وفى الحديث المعروف ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وشر من هؤلاء وهؤلاء من لا تكون عبادته لله ولا استعانته بل يعبد غيره ويستعين غيره وهؤلاء المشركون من الوجهين ومن هؤلاء من يكون شركه بالشياطين كاصحاب الاحوال الشيطانية فيفعلون ما تحبه الشياطين من الكذب والفجور ويدعونه بأدعية تحبها الشياطين ويعزمون بالعزائم التى تطيعها الشياطين مما فيها اشراك بالله كما قد بسط الكلام عليهم فى مواضع اخر وهؤلاء قد يحصل لهم من الخوارق ما يظن انه من كرامات الاولياء وانما هو من احوال السحرة والكهان ولهذا يجب الفرق بين الاحوال الايمانية القرآنية والاحوال النفسانية والأحوال الشيطانية واما القسم الرابع فهم اهل التوحيد الذين اخلصوا دينهم لله فلم يعبدوا الا اياه ولم يتوكلوا الا عليه وقول المكروب { لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ }الأنبياء87 قد يستحضر فى ذلك احد النوعين دون الآخر فمن أتم الله عليه النعمة استحضر التوحيد فى النوعين فان المكروب همته منصرفة إلى دفع ضره وجلب نفعه فقد يقول لا اله الا الله مستشعرا أنه لا يكشف الضر غيرك ولا يأتى بالنعمة إلا أنت فهذا مستحضر توحيد الربوبية ومستحضر توحيد السؤال والطلب والتوكل عليه معرض عن توحيد الالهية الذى يحبه الله ويرضاه ويأمر به وهو أن لا يعبد الا اياه ولا يعبده الا بطاعته وطاعة رسوله فمن استشعر هذا في قوله { لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ }الأنبياء87 كان عابدا لله متوكلا كليه وكان ممتثلا قوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}هود123 وقوله {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }هود88وقوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً {8} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً{9} المزمل8-9 ثم ان كان مطلوبه محرما أثم وان قضيت حاجته وان كان طالبا مباحا لغير قصد الاستعانة به على طاعة الله وعبادته لم يكن آثما ولا مثابا وان كان طالبا ما يعينه على طاعة الله وعبادته لقصد الاستعانة به على ذلك كان مثابا مأجورا[1]

اعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا

النية لها ركنان احدهما ان ينوي العبادة و العمل و الثاني ان ينوي المعبود المعمول له فهو المقصود بذلك العمل و المراد به الذي عمل العمل من اجله كما بينه النبي صلى الله عليه و سلم بقوله إنما الاعمال بالنيات و إنما لكل امرء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله و رسوله فهجرته إلى الله و رسوله و من كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر اليه فميز صلى الله عليه و سلم بين من كان عمله لله و من كان عمله لمال أو نكاح و الذي يجب ان يكون العمل له هو الله سبحانه وحده لا شريك له فان هذه النية فرض في جميع العبادات بل هذه النية اصل جميع

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 273-279

الاعمال و منزلتها منها منزلة القلب من البدن و لا بد في جميع العبادات ان تكون خالصة لله سبحانه كما قال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ{2} أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ{3} الزمر2-3 و قال تعالى {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ }الزمر11 تعالى {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي }الزمر14 و قال تعالى {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }غافر14 و قال سبحانه {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }غافر65 و قال {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ }الصافات40 في عدة مواضع و قال تعالى {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً }النساء146 و قال تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 و هذه الآيات كما دلت على فرض العبادة ففرضت العبادة و ان تكون لله خالصة و هذه حقيقة الاسلام و ما في القران من قوله اعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا و قوله{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 وقوله تعالى{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 إلى غير ذلك من الآيات كلها تدل على هذا الاصل بل جماع مقصود الكتاب والرسالة هو هذا وهو معنى قول لا اله الا الله وهو دين الله الذي بعث به جميع المرسلين و ضد هذه النية الرياء و السمعة وهو ارادة ان يرى الناس عمله وان يسمعوا ذكره وهؤلاء الذين ذمهم الله تعالى في قوله{ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{6} الماعون 4-6 و قال{ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ }النساء142 و من صلى بهذه النية فعمله باطل يجعله الله هباء منثورا و كذلك من ادى شيئا من الفرائض و الكلام في هذه النية و تفاصيلها لا يختص بعبادة دون عبادة اذ الفعل بدون هذه النية ليس عبادة اصلا الركن الثاني ان ينوي ما تتميز به عبادة عن عبادة فينوي الصلاة لتتميز عن سائر اجناس العبادات وينوي صلاة الظهر مثلا لتتميز عن صلوات سائر الاوقات و هكذا في كل ما يميز تلك العبادة من غيرها سواء كانت مفروضة ام مستحبة و هذه النية هي التي يتكلم عليها في هذه المواضع اذ الكلام هنا في فروع الدين و شرائعه و تلك النية متعلقة باصل الدين و جماعه و الفقه في شرائع الدين و فروعه إنما هو بعد تحقيق اصوله اذ الفروع كمال الاصول و اتمامها[1]

أن الشرك نوعان شرك في ربوبيته بأن يجعل لغيره معه تدبير إما كما قال سبحانه {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ }سبأ22 فبين أنهم لا يملكون مثقال ذرة استقلالا ولا يشركونه في شيء من ذلك ولا يعينونه على ملكه ومن لم يكن مالكا ولا شريكا ولا عونا فقد انقطعت علاقته وشرك في الألوهية بأن يدعو غيره دعاء عبادة أو دعاء مسألة كما قال تعالى{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}الفاتحة [2]5

قال الرسول صلى الله عليه وسلم ولا ينفع ذا الجد منك الجد أما الأولى فبالخفض وأما الثانية فبالضم والمعنى أن صاحب الجد لا ينفعه منك جده أى لا ينجيه ويخلصه منك جده وإنما ينجيه الإيمان والعمل الصالح و الجد هو الغنى وهو العظمة وهو المال بين أنه من كان له فى الدنيا رئاسة

---

[1] شرح العمدة ج: 4 ص: 576-578

[2] اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 357

ومال لم ينجه ذلك ولم يخلصه من الله وإنما ينجيه من عذابه إيمانه وتقواه فإنه قال اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد فبين فى هذا الحديث أصلين عظيمين أحدهما توحيد الربوبية وهو أن لا معطى لما منع الله ولا مانع لما أعطاه ولا يتوكل إلا عليه ولا يسأل إلا هو والثانى توحيد الإلهية وهو بيان ما ينفع وما لا ينفع وأنه ليس كل من أعطى مالا أو دنيا أو رئاسة كان ذلك نافعا له عند الله منجيا له من عذابه فإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الإيمان إلا من يحب قال تعالى { فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16} كَلَّا {17} الفجر15-17 يقول ما كل من وسعت عليه أكرمته ولا كل من قدرت عليه أكون قد اهنته بل هذا إبتلاء ليشكر العبد على السراء ويصبر على الضراء فمن رزق الشكر والصبر كان كل قضاء يقضيه الله خيرا له كما فى الصحيح عن النبى أنه قال لا يقضى الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خير له و وتوحيد الإلهية أن يعبد الله ولا يشرك به شيئا فيطيعه ويطيع رسله ويفعل ما يحبه ويرضاه وأما توحيد الربوبية فيدخل ما قدره وقضاه وإن لم يكن مما أمر به وأوجبه وأرضاه والعبد مأمور بأن يعبد الله ويفعل أمر به وهو توحيد الإلهية ويستعين الله على ذلك وهو توحيد له فيقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 والله أعلم[1]

كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الصحيح أنه صلى الله عليه و سلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول ربنا ولك الحمد ملء السماء وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد و كلنا لك عبد فهذا حمد وهو شكر لله تعالى وبيان أن حمده أحق ما قاله العبد ثم يقول بعد ذلك اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد وهذا تحقيق لوحدانيته لتوحيد الربوبية خلقا وقدرا وبداية وهداية هو المعطي المانع لامانع لما أعطى ولا معطى لما منع و لتوحيد الالهية شرعا وأمرا ونهيا وهو أن العباد و إن كانوا يعطون ملكا وعظمة و بختا ورياسة في الظاهر أو في الباطن كأصحاب المكاشفات و التصرفات الخارقة فلا ينفع ذا الجد منك الجد أي لاينجيه ولا يخلصه من سؤالك و حسابك حظه وعظمته وغناه ولهذا قال لاينفعه منك ولم يقل لاينفعه عندك فانه لو قيل ذلك أوهم أنه لا يتقرب به اليك لكن قد لايضره فيقول صاحب الجد إذا سلمت من العذاب فى الآخرة فما أبالي كالذين أوتوا النبوة و الملك لهم ملك فى الدنيا وهم من السعداء فقد يظن ذو الجد الذي لم يعمل بطاعة الله من بعده أنه كذلك فقال ولا ينفع ذا الجد منك ضمن ينفع معنى ينجى ويخلص فبين أن جده لا ينجيه من العذاب بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله ولا ينفعه جده منك فلا ينجيه ولا يخلصه فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد وتحقيق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وقوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود123 وقوله{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } هود88 وقوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً{8} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً{9}المزمل 8-9 فقوله لامانع لما أعطيت و لا معطى لما منعت توحيد الربوبية الذي يقتضى أنه سبحانه هو الذي يسأل و يدعى و يتوكل عليه وهو سبب لتوحيد الالهية و دليل عليه كما يحتج به فى القرآن على المشركين فان المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد توحيد الربوبية و مع

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 447-448

هذا يشركون بالله فيجعلون له أندادا يحبونهم كحب الله و يقولون إنهم شفعاؤنا عنده و إنهم يتقربون بهم اليه فيتخذونهم شفعاء و قربانا كما قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ }يونس18 وقال تعالى { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى }الزمر3 وقال تعالى { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{27} فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ{28}الأحقاف27-28 وهذا التوحيد هو عبادة الله و حده لاشريك له وأن لانعبده إلا بما أحبه وما رضيه وهو ما أمر به وشرعه على ألسن رسله صلوات الله عليهم فهو متضمن لطاعته و طاعة رسوله و موالاة أوليائه و معاداة أعدائه وأن يكون الله و رسوله أحب الى العبد من كل ما سواهما وهو يتضمن أن يحب الله حبا لا يماثله و لا يساويه فيه غيره بل يقتضى أن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم أحب اليه من نفسه فاذا كان الرسول لأجل أنه رسول الله يجب أن يكون أحب الى المؤمن من نفسه فكيف بربه سبحانه و تعالى وفى صحيح البخاري أن عمر قال يارسول الله و الله إنك لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال لايا عمر حتى أكون أحب اليك من نفسك قال فو الذي بعثك بالحق إنك لأحب إلي من نفسي قال الآن ياعمر وقد قال تعالى {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ }الأحزاب6 و قال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }التوبة24 فان لم يكن الله ورسوله والجهاد فى سبيله أحب إلى العبد من الأهل و المال على اختلاف أنواعه فانه داخل تحت هذا الوعيد فهذا التوحيد توحيد الالهية يتضمن فعل المأمور وترك المحظور ومن ذلك الصبر على المقدور كما أن الأول يتضمن الاقرار بأنه لا خالق ولا رازق معطي و لا مانع إلا الله و حده فيقتضى أن لا يسأل العبد غيره ولا يتوكل إلا عليه ولا يستعين إلا به كما قال تعالى فى النوعين{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وقال { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين وعليه يقع الجزاء والثواب فى الأولى و الآخرة فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين فان الله لايغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء أما توحيد الربوبية فقد أقر به المشركون و كانوا يعبدون مع الله غيره و يحبونهم كما يحبونه فكان ذلك التوحيد الذي هو توحيد الربوبية حجة عليهم فاذا كان الله هو رب كل شيء ومليكه ولا خالق ولا رازق إلا هو فلماذا يعبدون غيره معه وليس له عليهم خلق ولا رزق ولا بيده لهم منع ولا عطاء بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضرا ولانفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فان قالوا ليشفع فقد قال الله { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ }البقرة255 فلا يشفع من له شفاعة من الملائكة و النبيين إلا باذنه و أما قبورهم وما نصب عليها من قباب وأنصاب أو تماثيلهم التى مثلت على صورهم مجسدة أو مرقومة فجعل الاستشفاع بها استشفاعا بهم فهذا باطل عقلا و شرعا فانها لاشفاعة لها بحال و لا لسائر الأصنام التى عملت للكواكب و الجن و الصالحين و غيرهم[1]

الذى يستحق المحبة لذاته هو الله

فالعبد يفتقر إلى الله من جهة أنه معبوده الذي يحبه حب إجلال و تعظيم فهو غاية مطلوبه و مراده و منتهى همته و لا صلاح له إلا بهذا و أصل الحركات الحب و الذي يستحق المحبة لذاته هو الله فكل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص:376- 380 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 128-129

من أحب مع الله شيئا فهو مشرك و حبه فساد و إنما الحب الصالح النافع حب الله و الحب لله و الانسان فقير إلى الله من جهة عبادته له و من جهة استعانته به للاستسلام والانقياد لمن أنت إليه فقير و هو ربك و إلهك وهذا العلم و العمل أمر فطري ضروري فإن النفوس تعلم فقرها الى خالقها و تذل لمن افتقرت إليه و غناه من الصمدية التى انفرد بها فإنه يسأله من فى السموات والأرض و هو شهود الربوبية بالاستعانة و التوكل و الدعاء و السؤال ثم هذا لا يكفيها حتى تعلم ما يصلحها من العلم و العمل و ذلك هو عبادته والإنابة إليه فإن العبد إنما خلق لعبادة ربه فصلاحه و كماله و لذته و فرحه و سروره فى أن يعبد ربه و ينيب إليه و ذلك قدر زائد على مسألته والافتقار إليه فإن جميع الكائنات حادثة بمشيئته قائمة بقدرته و كلمته محتاجة إليه فقيرة إليه مسلمة له طوعا و كرها فإذا شهد العبد ذلك و أسلم له و خضع فقد آمن بربوبيته أى حاجته و فقره إليه صار سائلا له متوكلا عليه مستعينا به إما بحاله أو بقاله بخلاف المستكبر عنه المعرض عن مسألته ثم هذا المستعين به السائل له إما أن يسأل ماهو مأمور به أو ما هو منهى عنه أو ما هو مباح له فالأول حال المؤمنين السعداء الذين حالهم {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 والثاني حال الكفار والفساق والعصاة الذين فيهم إيمان به وإن كانوا كفارا كما قال {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ }يوسف106 فهم مؤمنون بربوبيته مشركون فى عبادته كما قال النبى صلى الله عليه و سلم لحصين الخزاعى ياحصين كم تعبد قال سبعة آلهة ستة فى الأرض و واحدا فى السماء قال فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك قال الذي فى السماء قال أسلم حتى أعلمك كلمة ينفعك الله تعالى بها فأسلم فقال قل اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي رواه أحمد و غيره ولهذا قال سبحانه و تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ }البقرة186 أخبر سبحانه أنه قريب من عباده يجيب دعوة الداعى إذا دعاه فهذا إخبار عن ربوبيته لهم وإعطائه سؤلهم وإجابة دعائهم فانهم إذا دعوه فقد آمنوا بربوبيته لهم وإن كانوا مع ذلك كفارا من وجه آخر وفساقا أو عصاة قال تعالى {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً }الإسراء67 وقال تعالى {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }يونس12 ونظائره في القرآن كثيرة ثم أمرهم بأمرين فقال{ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ }البقرة186 فالأول أن يطيعوه فيما أمرهم به من العبادة والاستعانة والثانى الإيمان بربوبيته وألوهيته وأنه ربهم وإلههم ولهذا قيل إجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد وعن كمال الطاعة لأنه عقب آية الدعاء بقولة{ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي}البقرة186 والطاعة والعبادة هي مصلحة العبد التى فيها سعادته ونجاته و أما إجابة دعائه وإعطاء سؤاله فقد يكون منفعة وقد يكون مضرة قال تعالى {وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً }الإسراء11 [1]

إن قيل إذا كان جميع ما يحبه الله داخلا فى اسم العبادة لماذا عطف عليها غيرها كقوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } وقوله{ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وقول نوح {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ }نوح3 وكذلك قول غيره من الرسل قيل هذا له نظائر كما فى قوله { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ }العنكبوت45 والفحشاء من المنكر وكذلك قوله {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 31-34

وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ }النحل90 وايتاء ذي القربى هو من العدل والاحسان كما ان الفحشاء والبغي من المنكر وكذلك قوله {وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ }الأعراف170 واقامة الصلاة من اعظم التمسك بالكتاب وكذلك قوله {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً}الأنبياء90 ودعاؤهم رغبا ورهبا من الخيرات وامثال ذلك فى القرآن كثير وهذا الباب يكون تارة مع كون احدهما بعض الاخر فيعطف عليه تخصيصا له بالذكر لكونه مطلوبا بالمعنى العام والمعنى الخاص وتارة تكون دلالة الاسم تتنوع بحال الانفراد والاقتران فاذا افرد عم واذا قرن بغيره خص كاسم الفقير و المسكين لما افرد احدهما في مثل قوله {لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ }البقرة273 وقوله { إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ }المائدة89 دخل فيه الاخر ولما قرن بينهما فى قوله {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ }التوبة60 صارا نوعين وقد قيل ان الخاص المعطوف على العام لا يدخل فى العام حال اقتران بل يكون من هذا الباب والتحقيق ان هذا ليس لازما قال تعالى {مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}البقرة98 وقال تعالى {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ }الأحزاب7 وذكر الخاص مع العام يكون لأسباب متنوعة تارة لكونه له خاصية ليست لسائر أفراد العام كما في نوح وابراهيم وموسى وعيسى وتارة لكون العام فيه اطلاق قد لا يفهم منه العموم كما فى قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{3} والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ {4} البقرة 2-4 فقوله { يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ {3}البقرة3 يتناول الغيب الذي يجب الايمان به لكن فيه اجمال فليس فيه دلالة على ان من الغيب ما انزل اليك وما انزل من قبلك وقد يكون المقصود انهم يؤمنون بالمخبر به وهو الغيب وبالاخبار بالغيب وهو ما انزل إليك وما انزل من قبلك ومن هذا الباب قوله تعالى {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ }العنكبوت45 وقوله {وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ }الأعراف170 وتلاوة الكتاب هي اتباعه كما قال ابن مسعود فى قوله تعالى{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ }البقرة121 قال يحللون حلاله ويحرمون حرامه ويؤمنون بمتشابهة ويعملون بمحكمه فاتباع الكتاب يتناول الصلاة وغيرها لكن خصها بالذكر لمزيتها وكذلك قوله لموسى {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي }طه14 واقامة الصلاة لذكره من اجل عبادته وكذلك قوله تعالى {اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ}المائدة35 وقوله { اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ }التوبة119 فإن هذه الامور هي ايضا من تمام تقوى الله وكذلك قوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 فان التوكل والاستعانة هي من عبادة الله لكن خصت بالذكر ليقصدها المتعبد بخصوصها فانها هى العون على سائر انواع العبادة اذ هو سبحانه لا يعبد الا بمعونته اذا تبين هذا فكمال المخلوق فى تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم ان المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه او ان الخروج عنها اكمل فهو من اجهل الخلق واضلهم قال تعالى { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ{26} لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ{27} الانبياء26-27 الى قوله {وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ{28} الانبياء28[1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 174-177

الإرادة الخلقية والإرادة الشرعية

فالخبر يتضمن العلم بالمخبر به و الأمر يتضمن طلبا و إرادة للمأمور به و إن لم يكن ذلك إرادة فعل الأمر و الله تعالى أمر العباد بما أمرهم به و لكن أعان أهل الطاعة فصار مريدا لأن يخلق أفعالهم و لم يعن أهل المعصية فلم يرد أن يخلق فعالهم فهذه الإرادة الخلقية القدرية لا تستلزم الأمر و اما الإرادة بمعنى أنه يجب فعل ما أمر به و يرضاه إذا فعل و يريد من المأمور أن يفعله من حيث هو مأمور فهذه لابد منها فى الأمر و لهذا أثبت الله هذه الإرادة فى الأمر دون الأولى و لكن فى الناس من غلط فنفى الإرادة مطلقا و كلا الفريقين لم يميز بين الإرادة الخلقية و الإرادة الأمرية و القرآن فرق بين الإرادتين فقال فى الأولى{فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً }الأنعام125 وقال نوح و {وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ }هود34 و قال { وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ }البقرة253 وقال {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ}الكهف39 ولهذا قال المسلمون ما شاء الله كان وما لم يشا لم يكن وقال في الثانية{ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ }البقرة185 وقال { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً }الأحزاب33 وقال { مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }المائدة6 وقال {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {26} وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً{27} يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً{28}النساء26 -28 و هذا مبسوط فى موضع آخر و المقصود هنا أنه لابد فى الأمر من طلب و إستدعاء و إقتضاء ن سواء قيل إن هناك إرادة شرعية و أنه لا إرادة للرب متعلقة بأفعال لعباد سوها كما تقوله المعتزلة و نحوهم من القدرية أو قيل لا إرادة للرب إلا الإرادة الخلقية القدرية التى يقال فيها ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن و أن إرادته عين نفس محبته و رضاه و أن إرادته و محبته و رضاه متعلقة بكل ما يوجد من إيمان و كفر و لا تتعلق بما لا يوجد سواء كن إيمانا أو كفرا و أنه ليس للعبد قدرة لها أثر فى و جود مقدوره و ليس فى المخلوقات قوى و أسباب يخلق بها و لا لله حكمة يخلق و يامر لأجلها كما يقول هذا و ما يشبهه جهم بن صفوان رأس لجبرية هو و من و افقه على ذلك أو بعضه من طوائف أهل الكلام و بعض متأخري الفقهاء و غيرهم المثبتين للقدر على هذه الطريقة لا على طريقة السلف و الأئمة كأبي الحسن و غيره فإن هؤلاء ناقضوا القدرية المعتزلة مناقضة ألجأتهم إلى إنكار حقيقة الأمر و النهي و الوعد و الوعيد و إن كان من يقول ببعض ذلك يتناقض و قد يثبت أحدهم من ذلك مما لا حقيقة له في المعنى وأما السلف و أئمة الفقهاء و جمهور المسلمين فيثبتون الخلق و الأمر و الإرادة الخلقية القدرية الشاملة لكل حادث و الإرادة الأمرية الشرعية المتناولة لكل ما يحبه الله و يرضاه لعباده و هو ما أمرت به الرسل و هو ما ينفع العباد و يصلحهم و يكون له العاقبة الحميدة النافعة فى المعاد الدافعة للفساد فهذه الإرادة الأمرية الشرعية متعلقة بالهيته المتضمنة لربوبيته كما أن تلك الإرادة الخلقية القدرية متعلقة بربوبيته و لهذا كان من نظر على هذه فقط و راعى هذه الخلقية الكونية القدرية دون تلك يكون له بداية بلا نهاية فيكون من الأخسرين أعمالا يحصل لهم بعض مطالبهم في لدنيا لإستعانتهم بالله إذ شهدوا ربوبيته و لا خلاق لهم في الآخرة إذ لم يعبدوا الله مخلصين له الدين و قد و قع فى هذا طوائف من أهل التصوف و الكلام و من نظر إلى الحقيقة الشرعية الأمرية دون ذلك فإنه قد يكون له عاقبة حميدة و قد يراعى الأمر لكنه يكون عاجز مخذولا حيث لم يشهد ربوبية الله و فقره إليه ليكون متوكلا عليه بريا من الحول و القوة إلا به فهذا قد يقصد أن يعبده و لا يقصد حقيقة الإستعانة به و هي

حال القدرية من المعتزلة و نحوهم الذين يقرون أن الله ليس خالقا أفعال العباد و لا مريدا للكائنات و لهذا قال أبو سليمان الداراني إنما يعجب بفعله القدري لأنه لا يرى أنه هو الخالق لفعله فأما أهل السنة الذين يقرون أن الله خالق أفعالهم و أن لله المنة عليهم فى ذلك فكيف يعجبون بها أو كما قال و الأول قد يقصد أن يستعينه و يسأله و يتوكل عليه و يبرأ من الحول و القوة إلا به و لكن لا يقصد أن يعبده بفعل ما أمر به و ترك ما نهى عنه على ألسن رسله و لا يشهد أن الله يحب أن يعبد و يطاع و أنه يفرح بتوبة التائبين و يحب المتقين و يغضب على الكفار و المنافقين بل ينسلخ من الدين أو بعضه لا سيما في نهاية أمره و هذه الحال إن طردها صاحبها كان شرا من حال المعتزلة القدرية بل إن طردها طرد حقيقيا أخرجته من الدين خروج الشعرة من العجين و هي حال المشركين و أما من هداه الله فإنه يحقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 و يعلم أن كل عمل لا يراد به و جه الله و لا يوافق أمره فهو مردود على صاحبه و كل قاصد لم يعنه الله فهو مصدود من مآربه فإنه يشهد أن لا إله إلا الله فيعبد الله مخلصا له الدين مستعينا بالله على ذلك مؤمنا بخلقه و أمره بقدره و شرعه فيستعين الله على طاعته و يشكره عليه و يعلم أنها منة من الله عليه و يستعيذ بالله من شر نفسه و سيئات عمله و يعلم أن ما أصابه من سيئة فمن نفسه مع علمه بأن كل شيء بقضاء الله و قدره و أن لله الحجة البالغة على خلقه و أن له فى خلقه و أمره حكمة بالغة و رحمة سابغة و هذه الأمور أصول عظيمة لبسطها موضع آخر[1]

التوكل والرجاءمعنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع

فمن فهم معنى قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{5} الفاتحة 5 عرف أنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة الا الله وحده وأنه يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه وكذلك الاستغاثة لا تكون الا بالله والتوكل لا يكون الا عليه[2]

واما قول علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا يرجون عبد إلا ربه، فإن الراجي يطلب حصول الخير ودفع الشر ولا يأتى بالحسنات إلا الله ولا يذهب السيئات إلا الله {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ }يونس107 {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَّهُ مِن بَعْدِهِ }فاطر2 والرجاء مقرون بالتوكل فإن المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المنفعة ودفع المضرة والتوكل لا يجوز إلا على الله كما قال تعالى { وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }المائدة23 وقال {وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ }إبراهيم12 وقال تعالى {إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ }آل عمران160 وقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ }التوبة59 وقال تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ {173}الانفال173 فهؤلاء قالوا حسبنا الله أى كافينا الله فى دفع البلاء وأولئك أمروا أن يقولوا حسبنا فى جلب النعماء فهو سبحانه كاف عبده فى إزالة الشر وفى إنالة الخير أليس الله بكاف عبده ومن توكل على غير الله ورجاه خذل من جهته وحرم {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 62-65

[2] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 357

أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }العنكبوت41 { وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً{81} كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً{82} مريم 81-82 { وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ }الحج31 {لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً }الإسراء22 وقال الخليل { فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }العنكبوت17 فمن عمل لغير الله رجاء أن ينتفع بما عمل له كانت صفقته خاسرة قال الله تعالى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ }النور39 وقال تعالى {مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ }إبراهيم18 وقال تعالى {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً }الفرقان23 وقال تعالى {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ }القصص88 كما قيل فى تفسيرها كل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه فمن عمل لغير الله ورجاه بطل سعيه الراجي يكون راجيا تارة بعمل يعمله لمن يرجوه وتارة بإعتماد قلبه عليه والتجائه إليه وسؤاله فذاك نوع من العبادة له وهذا نوع من الإستعانة به وقد قال تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وقال { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وقال { قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }الرعد30 ومما يوضح ذلك أن كل خير ونعمة تنال العبد فإنما هي من الله وكل شر ومصيبة تندفع عنه أو تكشف عنه فإنما يمنعها الله وإنما يكشفها الله وإذا جرى ما جرى من أسبابها على يد خلقه فالله سبحانه هو خالق الأسباب كلها سواء كانت الأسباب حركة حى بإختياره وقصده كما يحدثه تعالى بحركة الملائكة والجن والإنسن والبهائم أو حركة جماد بما جعل الله فيه من الطبع أو بقاسر يقسره كحركة الرياح والمياه ونحو ذلك فالله خالق ذلك كله فإنه لا حول ولا قوة إلا به وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فالرجاء يجب أن يكون كله للرب والتوكل عليه والدعاء له فإنه إن شاء ذلك ويسره كان وتيسر ولو لم يشأ الناس وإن لم يشأه ولم ييسره ولم يكن وإن شاءه الناس وهذا واجب لو كان شىء من الأسباب مستقلا بالمطلوب فأنه لو قدر مستقلا بالمطلوب وإنما يكون بمشيئة الله وتيسيره لكان الواجب أن لا يرجى إلا الله ولا يتوكل إلا عليه ولا يسأل إلا هو ولا يستعان إلا به ولا يستغاث إلا هو فله الحمد وإليه المشتكي وهو المستعان وهو المستغاث و لا حول و القوة إلا به فكيف و ليس شيء من الأسباب مستقلا بمطلوب بل لابد من إنضمام أسباب أخر إليه و لا بد أيضا من صرف الموانع و المعارضات عنه حتى يحصل المقصود فكل سبب فله شريك و له ضد فان لم يعاونه شريكه و لم يصرف عنه ضده لم يحصل سببه فالمطر و حده لا ينبت النبات إلا بما ينضم اليه من الهو اء و التراب و غير ذلك ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الأفات المفسده له و الطعام و الشراب لايغذى إلا بما جعل فى البدن من الأعضاء و القوى و مجموع ذلك لا يفيد إن لم تصرف المفسدات و المخلوق الذي يعطيك أو ينصرك فهو مع أن الله يخلق فيه الإرادة و القوة والفعل فلا يتم ما يفعله إلا بأسباب كثيرة خارجة عن قدرته تعاونه على مطلوبه و لو كان ملكا مطاعا ولا به أن يصرف عن الأسباب المعاونه ما يعارضها ويمانعها فلا يتم المطلوب إلا بوجود المقتضى و عدم المانع وكل سبب معين فإنما هو جزء من المقتضى فليس فى الوجود شيء واحد هو مقتضيا وإن سمى مقتضيا وسميى سائر ما يعينه شروطا فهذا نزاع لفظي وحينئذ فيقال لابد من وجود المقتضى والشروط وإنتفاءالموانع وإما أن يكون في المخلوقات علة تامة تستلزم معلولها فهذا باطل ومن عرف هذا حق المعرفة إنفتح له باب توحيد الله وعلم أنه لا يستحق لأن يدعى غيره فضلا عن أن يعبد غيره ولا يتوكل على غيره ولا يرجى غيره وهذا مبرهن بالشرع والعقل ولا فرق فى ذلك بين الأسباب العلوية والسفلية وأفعال الملائكة والأنبياء والمؤمنين وشفاعتهم وغير ذلك من الأسباب فإن من توكل فى

الشفاعة أو الدعاء على ملك أو نبى أو رجل صالح أو نحو ذلك قيل له هذا أيضا سبب من الأسباب فهذا الشافع والداعى لا يفعل ذلك إلا بمشيئة الله وقدرته بل شفاعة أهل طاعته لا تكون إلا لمن يرضاه كما قال تعالى { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى }الأنبياء28 فليس أحد يشفع عنده إلا بإذنه الإذن القدري الكونى فإن شفاعته من جهة أفعال العباد لا تكون إلا بمشيئته وقدرته فليس كالمخلوق الذي يشفع إليه شافع تكون شفاعته بغير حول المشفوع إليه وقوته بل هو سبحانه خالق شفاعة الشافع كسائرالتحولات ولا حول ولا قوة إلا به الحول يتضمن التحول من حال إلى حال بحركة أو إرادة أو غير ذلك فالشافع لا حول له فى الشفاعة ولا غيرها إلا به ثم أهل طاعته الذين تقبل شفاعتهم لا يشفعون إلا لمن إرتضى فلا يطلبون منه ما لايحب أن يطلب منه بل الملائكة الذين هم ملائكته كما قال فيهم { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ{26} لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ{27} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ{28} وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ{29} الأنبياء26-29 والصادرعنهم إما قول وإما عمل فالقول لا يسبقونه به بل لا يقولون حتى يقول ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وعلينا أن نكون معه ومع رسله هكذا فلا نقول فى الدين حتى يقول ولا نتقدم بين يدي الله ورسوله ولا نعبده إلا بما أمر وأعلى من هذا أن لا نعمل إلا بما أمر فلا تكون أعمالنا إلا واجبة أومستحبة وإذا كان هكذا في مثل هذه الأسباب فكيف بمن توكل أ و رجا أسبابا غير هذه من الكواكب أو غيرها أو من أفعال الآدميين من الملوك والرؤساء والأصحاب والأصدقاء والمماليك والأتباع وغير ذلك ومما ينبغى أن يعلم ما قاله طائفة من العلماء قالوا الإلتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص فى العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع وإنما التوكل والرجاءمعنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع وبيان ذلك أن الإلتفات الى السبب هو إعتماد القلب عليه ورجاؤه والإستناد إليه وليس فى الخلوقات ما يستحق هذا لانه ليس مستقلا لا بد له من شركاء وأضداد ومع هذا كله فان لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر وهذا مما يبين أن الله رب كل شيء ومليكه وأن السموات والأرض وما بينهما والأفلاك وما حوته لها خالق مدبر غيرها وذلك أن كل ما يصدر عن فلك أوكوكب أو ملك أو غير ذلك فإنك تجده ليس مستقلا بإحداث شيء من الحوادث بل لابد من مشارك ومعاونوه و مع ذلك له معارضات وممانعات[1]

مقتضيات العبودية

كمال الذل بكمال الحب

ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن احب شيئا ولم يذل له لم يعبده ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 166-170

وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا[1]

*- المحبة التامة تستلزم الأرادة الجازمة

وانما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله ويسخطه ما يسخط الله ويحب ما احبه الله ورسوله ويبغض ما ابغضه الله ورسوله ويوالي اولياء الله ويعادى اعداء الله تعالى وهذا هو الذى استكمل الايمان كما فى الحديث من احب لله وابغض لله واعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان وقال اوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله وفى الصحيح عنه ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان من كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا لله ومن كان يكره ان يرجع فى الكفر بعد اذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه فكان الله ورسوله احب اليه مما سواهما واحب المخلوق لله لا لغرض آخر فكان هذا فكان من تمام حبه لله فان محبة محبوب من تمام محبة المحبوب فاذا احب أنبياء الله واولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر فقد احبهم لله لا لغيره وقد قال تعالى { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}المائدة54 ولهذا قال تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ }آل عمران31 فان الرسول يأمر بما يحب الله وينهى عما يبغضه الله ويفعل ما يحبه الله ويخبر بما يحب الله التصديق به فمن كان محبا لله لزم ان يتبع الرسول فيصدقه فيما اخبر ويطيعه فيما امر ويتأسى به فيما فعل ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله فيحبه الله فجعل الله لأهل محبته علامتين اتباع الرسول والجهاد فى سبيله وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد فى حصول ما يحب الله من الايمان والعمل الصالح ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان وقد قال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ }التوبة24الى قوله{ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}التوبة24 فتوعد من كان اهله وماله احب اليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله بهذا الوعيد بل قد ثبت نه فى الصحيح انه قال والذى نفسى بيده لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين وفى الصحيح ان عمر بن الخطاب قال له يا رسول الله والله لأنت احب الي من كل شيء الا من نفسى فقال لا يا عمر حتى اكون احب اليك من نفسك فقال فوالله لأنت احب الي من نفسي فقال الأن يا عمر فحقيقة المحبة لا تتم الا بموالاة المحبوب وهو موافقته فى حب ما يحب وبغض ما يبغض والله يحب الايمان والتقوى ويبغض الكفر والفسوق والعصيان ومعلوم ان الحب يحرك ارادة القلب فكلما قويت المحبة فى القلب طلب القلب فعل المحبوبات فاذا كانت المحبة تامة استلزمت ارادة جازمة فى حصول المحبوبات فاذا كان العبد قادرا عليها حصلها وان كان عاجزا عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك كان له كأجر الفاعل كما قال النبى من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل اجور من اتبعه من غير ان ينقص من اجورهم شيئا

---

[1] الجواب الصحيح ج: 6 ص: 31

ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الوزر مثل اوزار من اتبعه من غير ان ينقص من اوزارهم شيئا وقال ان بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم قالوا وهم بالمدينة قال هم بالمدينة حبسهم العذر و الجهاد هو بذل الوسع وهو القدرة فى حصول محبوب الحق ودفع ما يكرهه الحق فاذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلا على ضعف محبة الله ورسوله فى قلبه ومعلوم ان المحبوبات لا تنال غالبا الا باحتمال المكروهات سواء كانت محبة صالحة فاسدة فالمحبون للمال والرئاسة والصور لا ينالون مطالبهم الا بضرر يلحقهم فى الدنيا مع ما يصيبهم من الضرر فى الدنيا والآخرة فالمحب لله ورسوله اذا لم يتحمل ما يرى ذو الرأى من المحبين لغير الله مما يحتملون فى حصول محبوبهم دل ذلك على ضعف محبتهم لله اذا كان ما يسلكه اولئك هو الطريق الذي يشير به العقل ومن المعلوم ان المؤمن اشد حبا لله كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ }البقرة165 نعم قد يسلك المحب لضعف عقله وفساد تصوره طريقا لالا يحصل بها المطلوب فمثل هذه الطريق لا تحمد اذا كانت المحبة صالحة محمودة فكيف اذا كانت المحبة فاسدة والطريق غير موصل كما يفعله المتهورون فى طلب المال والرئاسة والصور في حب امور توجب لهم ضرر ولا تحصل لهم مطلوبا وانما المقصود الطرق التى يسلكها العقل حصول مطلوبه واذا تبين هذا فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وحرية عما سواه والقلب فقير بالذات الى الله من وجهين من جهة العبادة وهى العلة الغائبة ومن جهة الاستعانة والتوكل وهى العلة الفاعلية فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر لا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن الا بعبادة ربه وحبه والانابة اليه ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن اذ فيه فقر ذاتى الى ربه ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة وهذا لا يحصل له إلا باعانة الله له لا يقدر على تحصيل ذلك له الا الله فهو دائما مفتقر الى حقيقة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فانه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ولم يحصل له عبادته لله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصودة وهو الحبوب له بالقصد الأول وكل ما سوا انما يحبه لأجله لا يحب شيئا لذاته الا الله متى لم يحصل له هدا لم يكن قد حقق حقيقة لا اله الا الله ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة وكان فيه من النقص والعيب بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك ولو سعى فى هذا المطلوب ولم يكن مستعينا بالله متوكلا عليه مفتقرا اليه فى حصوله لم يحصل له فانه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فهو مفتقر الى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود ومن حيث هو المسؤول المستعان به المتوكل عليه فهو الهه لا اله له غيره وهو ربه لا رب سواه ولا تتم عبوديته لله الا بهذين فمتى كان يحب غير الله لذاته او يلتفت الى غير الله انه يعينه كان عبدا لما احبه وعبدا لما رجاه بحسب حبه له ورجائه اياه واذا لم يحب لذاته الا الله وكلما احب سواه فانما احبه له ولم يرج قط شيئا الا الله واذا فعل ما فعل من الأسباب او حصل ما حصل منها كان مشاهدا ان الله هو الذي خلقها وقدرها وان كل ما فى السموات والارض فالله ربه ومليكه وخالقه وهو مفتقر اليه كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك والناس فى هذا على درجات متفاوتة لا يحصى طرفيها الا الله فأكمل الخالق وأفضلهم واعلاهم واقربهم الى الله واقواهم واهداهم اتمهم عبودية لله من هذا الوجه وهذا هو حقيقة دين الاسلام الذى أرسل به

رسله وانزل به كتبه وهو ان يستسلم العبد لله لا لغيره فالمستسلم له ولغيره مشرك والممتنع عن الاستسلام له مستكبر[1]

والله سبحانه أرسل الرسل بانه لا اله إلا هو فتخلوا القلوب عن محبة ما سواه بمحبته وعن رجاء ما سواه برجائه وعن سؤال ما سواه بسؤاله وعن العمل لما سواه بالعمل له وعن الاستعانة بما سواه بالاستعانة به ولهذا كان وسط الفاتحة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 قال النبى فى الحديث الصحيح يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فاذا قال { الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{2}الفاتحة2 قال الله حمدنى عبدى فاذا قال { الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ{3}الفاتحة3 قال اثنى على عبدى واذا قال { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ{4}الفاتحة5 قال مجدنى عبدى واذا قال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 قال هذه الاية بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل واذا قال { اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَالضَّالِّينَ{7}الفاتحة6-7 قال هؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل فوسط السورة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}الفاتحة5 فالدين ان لا يعبد الا الله ولا يستعان إلا اياه والملائكة والانبياء وغيرهم عباد الله كما قال تعالى {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً للَّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً {172} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{173}النساء172 -173 فالحب لغير الله كحب النصارى للمسيح وحب اليهود لموسى وحب الرافضة لعلى وحب الغلاة شيوخهم وأئمتهم مثل من يوالى شيخا أو اماما وينفر عن نظيره وهما متقاربان أو متساويان فى الرتبة فهذا من جنس أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض وحال الرافضة الذين يوالون بعض الصحابة ويعادون بعضهم وحال أهل العصبية من المنتسبين إلى فقه وزهد الذين يوالون بعض الشيوخ والائمة دون البعض وانما المؤمن من يوالى جميع أهل الايمان قال الله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ }الحجرات10 [2]

التقوى والتوكل

قال الله تعالى { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً{3}الطلاق2-3 قد روى عن أبى ذر عن النبى أنه قال لو أخذ الناس كلهم بهذه الاية لكفتهم وقوله { مَخْرَجاً}الطلاق2 عن بعض السلف أي من كل ما ضاق على الناس وهذه الاية مطابقة لقوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 الجامعة لعلم الكتب الإلهية كلها وذلك أن التقوى هي العبادة المأمور بها فإن تقوى الله وعبادته وطاعته أسماء متقاربة متكافئة متلازمة والتوكل عليه هو الإستعانة به فمن يتقى الله مثال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ }الفاتحة5 ومن يتوكل على الله مثال {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 كما قال { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وقال { عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا }الممتحنة4 وقال{ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }هود88[3]

1- [1]مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 191-195

-2

[2]مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 524-525

[3]مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 55

فان خلو الحي عن الارادة مطلقا محال فان لم يحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه احب ما تحبه نفسه وابغض ما تبغضه نفسه فيخرج عن الفرق الالهي النبوي الذي هو حقيقة قول لا اله الا الله وحقيقة دين الاسلام الى الفرق النفساني الشيطاني ثم هؤلاء صاروا فرقا اما ابن سينا وامثاله من الملاحدة فانهم يأمرون بهذا مع سائر الحادهم من نفي الصفات وقدم الافلاك وانكار معاد الابدان وجعل النبوة تنال بالكسب كالذكاء والزهد وانما يفيض عليها فيض من العقل الفعال فيخرج من دين المسلمين واليهود والنصارى بل الفناء المحمود عند العارفين هو تحقيق شهادة ان لا اله الا الله فلا يشهد لمخلوق شيئا من الالهية فيشهد انه لا خالق غيره ويشهد انه لا يستحق العبادة غيره ويتحقق بحقيقة قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وقوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123والا فاذا شهدت انه المستحق للعبادة مع رؤيتك نفسك لم تشهد حقيقة اياك نستعين واذا شهدت حقيقة انه الفاعل لكل شيء ولم تشهد انه المستحق للعبادة دون ما سواه وان عبادته انما تكون بطاعة رسوله لم تشهد حقيقة اياك نعبد واذا تحققت بقوله اياك نعبد واياك نستعين تحققت بالفناء في التوحيد الذي بعث الله به رسله وانزل به كتبه قال الله تعالى {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً {8} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً{9}المزمل8 -9 وقال تعالى {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وقال تعالى { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ{3}الطلاق 2-3 وقال تعالى { قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }الرعد30[1]

فإن التوكل أعم من التوكل في مصالح الدنيا فإن المتوكل يتوكل على الله في صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وإرادته وهذا أهم الأمور إليه ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}الفاتحة5 فهو قد جمع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع لأن هذين يجمعان الدين كله ولهذا قال من قال من السلف إن الله جمع الكتب المنزلة في القرآن وجمع علم القرآن في المفصل وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله إياك نعبد وإياك نستعين وهاتان الكلمتان الجامعتان اللتان للرب والعبد كما في الحديث الصحيح الذي في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله سبحانه قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول العبد الحمد لله رب العالمين يقول الله حمدني عبدي يقول العبد الرحمن الرحيم يقول الله أثني على عبدي يقول العبد مالك يوم الدين يقول الله مجدني عبدي يقول العبد إياك نعبد وإياك نستعين يقول الله فهذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل يقول العبد اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين يقول الله فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل فالرب سبحانه له نصف الثناء والخير والعبد له نصف الدعاء والطلب وهاتان جامعتان ما للرب سبحانه وما للعبد فإياك نعبد للرب وإياك نستعين للعبد وفي الصحيحين عن معاذ رضي الله عنه قال كنت رديفا للنبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد قلت الله ورسوله اعلم قال حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به والعبادة هي الغاية التي خلق الله لها العباد من جهة أمر الله ومحبته ورضاه كما قال تعالى{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

---

[1] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 520-521

وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 وبها أرسل الرسل وأنزل الكتب وهي اسم يجمع كمال الذل ونهايته وكمال الحب لله ونهايته فالحب الخلي عن ذل والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله وهي وإن كانت منفعتها للعبد والله غني عنها فهي له من جهة محبته لها ورضاه بها ولهذا كان الله أشد فرحا بتوبة العبد من الفاقد لراحلته عليها طعامه وشرابه في ارض دوية ملهكة إذا نام آيسا منها ثم استيقظ فوجدها فالله أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته وهذا يتعلق به أمور جليلة قد بسطناها وشرحناها في غير هذا الموضع والتوكل والاستعانة للعبد لأنه هو الوسيلة والطريق الذي ينال به مقصوده ومطلوبه من العبادة فالاستعانة كالدعاء والمسألة وقد روى الطبراني في كتاب الدعاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله يا ابن آدم إنما هي اربع واحدة لي وواحدة لك وواحدة بيني وبينك وواحدة بينك وبين خلقي فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئا وأما التي هي لك فعملك أجازيك به أحوج ما تكون إليه وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعلى الاجابة وأما التي بينك وبين خلقي فأت للناس ما تحب أن يأتوا إليك وكون هذا لله وهذا للعبد هو اعتبار تعلق المحبة والرضاء ابتداء فإن العبد ابتداء يحب ويريد ما يراه ملائما له والله تعالى يحب ويرضى ما هو الغاية المقصودة في رضاه وحبه الوسيلة تبعا لذلك وإلا فكل مأمور به فمنفعته عائدة على العبد وكل ذلك يحبه الله ويرضاه وعلى هذا فالذي ظن أن التوكل من المقامات العامة ظن أن التوكل لا يطلب به إلا حظوظ الدنيا وهو غلط بل التوكل في الأمور الدينية أعظم وأيضا التوكل في الأمور الدينية التي لا تتم الواجبات والمستحبات إلا بها والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه والزهد المشروع هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله كما أن الورع المشروع هو ترك ما قد يضر في الدار الآخرة وهو ترك المحرمات[1]

أحرص على ما ينفعك واستعن بالله

فروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان وفي سنن أبي داود أن رجلين اختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى على أحدهما فقال المقضي عليه حسبي الله ونعم الوكيل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل فأمر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن أن يحرص على ما ينفعه وأن يستعين بالله وهذا مطابق لقوله إياك نعبد وإياك نستعين وقوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود123 فإن الحرص على ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته إذ النافع له هو طاعة الله ولا شيء أنفع له من ذلك وكل ما يستعان به على الطاعة فهو طاعة وإن كان من جنس المباح قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لسعد إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة تضعها في في امرأتك فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يلوم على العجز الذي هو ضد الكيس وهو التفريط فيما يؤمر بفعله فإن ذلك ينافي القدرة المقارنة

---

[1] أمراض القلوب ج: 1 ص: 43-45

للفعل وإن كان لا ينافي القدرة المقدمة التي هي مناط الأمر والنهي فإن الاستطاعة التي توجب الفعل وتكون مقارنة له لا تصلح إلا لمقدورها[1]

الأخذ بالأسباب

واما المؤمنون بالله ورسوله عوامهم وخواصهم الذين هم اهل الكتاب كما قال النبى ان لله اهلين من الناس قيل من هم يا رسول الله قال اهل القرآن هم اهل الله وخاصته فهؤلاء يعلمون ان الله رب كل شيء ومليكه وخالقه وان الخالق سبحانه مباين للمخلوق ليس هو حالا فيه ولا متحدا به ولا وجوده وجوده و النصاري كفرهم بأن قالوا بالحلول والاتحاد بالمسيح خاصة فكيف من جعل ذلك عاما فى كل مخلوق ويعلمون مع ذلك ان الله امر بطاعته وطاعة رسوله ونهى عن معصيته ومعصية رسوله وانه لا يحب الفساد ولا يرضي لعباده الكفر وان على الخلق ان يعبدوه فيطيعوا امره ويستعينوا به على ذلك كما قال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 ومن عبادته وطاعته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب الامكان والجهاد فى سبيله لاهل الكفر والنفاق فيجتهدون فى اقامة دينه مستعينين به دافعين مزيلين بذلك ما قدر من السيئات دافعين بذلك ما قد يخاف من ذلك كما يزيل الانسان الجوع الحاضر بالاكل ويدفع به الجوع المستقبل وكذلك اذا آن اوان البرد دفعه باللباس وكذلك كل مطلوب يدفع به مكروه كما قالوا للنبى يا رسول اله ارأيت ادوية نتداوى بها ورقى نسترقى بها وتقاة نتقى بها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وفى الحديث ان الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والارض فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله العابدين لله وكل ذلك من العبادة[2]

*الالتفات الى الاسباب شرك فى التوحيد ومحو الأسباب ان تكون اسبابا نقص فى العقل والاعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع فان الخير لا موجب له الا مشيئة الله فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن والمعوق له من العبد هو ذنوبه وما كان خارجا عن قدرة العبد فهو من الله وان كانت افعال العباد بقدر الله تعالى لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحظور سببا للنجاة والسعادة فشهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر ولهذا ينبغى للعبد ان لا يعلق رجاءه الا بالله ولا يخاف من الله ان يظلمه فان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون بل يخاف ان يجزيه بذنوبه وهذا معنى ما روى عن على رضى الله عنه انه قال لا يرجون عبد الا ربه ولا يخافن الا ذنبه وفى الحديث المرفوع الى النبى انه دخل على مريض فقال كيف تجدك فقال ارجو الله واخاف ذنوبى فقال ما اجتمعا فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن الا اعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف فالرجاء ينبغى ان يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله فان تعليق الرجاء بغير الله اشراك وان كان الله قد جعل لها اسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه بل لابد له من معاون ولابد ان يمنع المعارض المعوق له وهو لا يحصل ويبقى الا بمشيئة الله تعالى ولهذا قيل الالتفات الى الاسباب شرك فى التوحيد ومحو الأسباب ان تكون اسبابا نقص فى العقل والاعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ولهذا قال الله تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7}

---

[1] أمراض القلوب ج: 1 ص: 50

[2] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 163-164

وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8} الشرح 7-8 فامر بأن تكون الرغبة اليه وحده وقال { وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }المائدة23 فالقلب لا يتوكل الا على من يرجوه فمن رجا قوته او عمله او علمه او حاله او صديقه او قرابته او شيخة او ملكة او ماله غير ناظر الى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب وما رجا احد مخلوقا او توكل عليه الا خاب ظنه فيه فانه مشرك { وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ }الحج31 وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب كما قال تعالى {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً }آل عمران151 والخالص من الشرك يحصل له الا من كما قال تعالى {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ }الأنعام82 وقد فسر النبى الظلم هنا بالشرك ففى الصحيح عن ابن مسعود ان هذه الآية لما نزلت شق ذلك على اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا اينا لم يظلم نفسه فقال النبى انما هذا الشرك الم تسمعوا الى قول العبد الصالح { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }لقمان13 وقال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ{165} إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ{166} وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ{167} البقرة 165-167 وقال تعالى { قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً{56} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً{57}الإسراء56-57 ولهذا يذكر الله الاسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها ولا يرجى الا الله قال تعالى لما انزل الملائكة {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ }آل عمران126 وقال {إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }آل عمران160 وقد قدمنا ان الدعاء نوعان دعاء عبادة ودعاء مسألة وكلاهما لا يصلح الا لله فمن جعل مع الله الها آخر قعد مذموما مخذولا والراجى سائل طالب فلا يصلح ان يرجو الا الله ولا يسأل غيره ولهذا قال النبى فى الحديث الصحيح ما أتاك من هذا المال وانت غير سائل ولا مشرف فخذه ومالا فلا تتبعه نفسك فالمشرف الذى يستشرف بقلبه والسائل الذى يسأل بلسانه وفى الحديث الذى فى الصحيحين عن ابى سعيد الخدرى قال اصابتنا فاقة فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسأله فوجدته يخطب الناس وهو يقول ايها الناس والله مهما يكن عندنا من خير فلن ندخره عنكم وانه من يستغن يغنه الله ومن يستعفف يعفه الله ومن يتصبر يصبره الله وما اعطى احد عطاء خيرا واوسع من الصبر و الاستغناء ان لا يرجو بقلبه احدا فيتشرف اليه و الاستعفاف ان لا يسأل بلسانه احدا ولهذا لما سئل احمد بن حنبل عن التوكل فقال قطع الاستشراف الى الخلق اى لا يكون فى قلبك ان احدا يأتيك بشىء فقيل له فما الحجة فى ذلك فقال قول الخليل لما قال له جبرائيل هل لك من حاجة فقال اما اليك فلا فهذا وما يشبهه مما يبين ان العبد فى طلب ما ينفعه ودفع يضره لا يوجه قلبه الا الى الله فلهذا قال المكروب { لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ }الأنبياء87 ومثل هذا ما فى الصحيحين عن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب لا اله الا الله العظيم الحليم لا اله الا الله رب العرش العظيم لا اله الا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم فان هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد وتأله العبد ربه وتعلق رجائه به وحده لا شريك له وهى لفظ خبر يتضمن الطلب والناس وان كانوا يقولون بألسنتهم لا اله الا الله فقول العبد لها مخلصا من قلبه له حقيقة اخرى وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله قال تعالى {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً{43} أَمْ

تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً{44} الفرقان43-44 فمن جعل ما يألهه هو ما يهواه فقد اتخذ الهه هواه اى جعل معبوده هو ما يهواه وهذا حال المشركين الذين يعبد احدهم ما يستحسنه فهم يتخذون اندادا من دون الله يحبونهم كحب الله ولهذا قال الخليل { لا أُحِبُّ الآفِلِينَ }الأنعام76 فإن قومه لم يكونوا منكرين للصانع ولكن كان احدهم يعبد ما يستحسنه ويظنه نافعا كالشمس والقمر والكواكب والخليل بين ان الآفل يغيب عن عابده وتحجبه عنه الحواجب فلا يرى عابده ولا يسمع كلامه ولا يعلم حاله ولا ينفعه ولا يضره بسبب ولا غيره فأى وجه لعبادة من يأفل وكلما حقق العبد الاخلاص فى قول لا اله الا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه وتصرف عنه المعاصى والذنوب كما قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ }يوسف24 فعلل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين وهؤلاء هم الذين قال فيهم {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ }الحجر42 وقال الشيطان {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ {82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{83}ص82-83 وقد ثبت فى الصحيح عن النبى انه قال من قال لا اله الا الله مخلصا من قلبه حرمه الله على النار فإن الاخلاص ينفى اسباب دخول النار فمن دخل النار من القائلين لا اله الا الله لم يحقق اخلاصها المحرم له على النار بل كان فى قلبه نوع من الشرك الذى اوقعه فيما ادخله النار والشرك فى هذه الأمة اخفى من دبيب النمل ولهذا كان العبد مأمورا فى كل صلاة ان يقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه فى ذلك فلا تزال النفس تلتفت الى غير الله اما خوفا منه واما رجاء له فلا يزال العبد مفتقرا الى تخليص توحيده من شوائب الشرك وفى الحديث الذى رواه ابن أبي عاصم وغيره عن النبى انه قال يقول الشيطان اهلكت الناس بالذنوب واهلكونى بلا اله الا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعا فصاحب الهوى الذى اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيب ممن اتخذ الهه هواه فصار فيه شرك منعه من الاستغفار واما من حقق التوحيد والاستغفار فلا بد ان يرفع عنه الشر فلهذا قال ذو النون { لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ }الأنبياء87 ولهذا يقرن الله بين التوحيد والاستغفار فى غير موضع كقوله تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ }محمد19 وقوله {أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ{2} وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ{3}هود 2-3 وقوله { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ {50}هود50 الى قوله {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ }هود52 وقوله { فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ }فصلت6 وخاتمة المجلس سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا اله الا انت استغفرك واتوب اليك ان كان مجلس رحمه كانت كالطابع عليه وان كان مجلس لغو كانت كفارة له وقد روى ايضا انها تقال فى آخر الضوء بعد ان يقال اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد ان محمدا عبده ورسوله اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين وهذا الذكر يتضمن التوحيد والاستغفار فان صدره الشهادتان اللتان هما اصلا الدين وجماعة فان جميع الذين داخل فى الشهادتين اذ مضمونها ان لا نعبد الا الله وان نطيع رسوله و الدين كله داخل فى هذا فى عبادة الله بطاعة الله وطاعة رسوله وكل ما يجب او يستحب داخل فى طاعة الله ورسوله وقد روى انه يقول سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا اله الا انت استغفرك واتوب اليك وهكذا كفارة المجلس فقد شرع فى آخر المجلس وفى آخر الوضوء وكذلك كان النبى يختم الصلاة كما فى الحديث الصحيح انه كان يقول فى آخر صلاته اللهم اغفر لى ما قدمت وما اخرت وما اسررت وما اعلنت وما انت اعلم به منى انت المقدم وانت المؤخر لا اله الا انت وهنا قدم الدعاء وختمه بالتوحيد لأن الدعاء مأمور به فى آخر الصلاة وختم بالتوحيد ليختم الصلاة بأفضل الأمرين وهو التوحيد بخلاف ما لم يقصد فيه هذا فان

تقديم التوحيد افضل فإن جنس الدعاء الذى هو ثناء وعبادة افضل من جنس الدعاء الذى هو سؤال وطلب وان كان المفضول قد يفضل على الفاضل فى موضعه الخاص بسبب وبأشياء اخر كما ان الصلاة افضل من القراءة والقراءة افضل من الذكر الذى هو ثناء والذكر افضل من الدعاء الذى هو سؤال ومع هذا فالمفضول له امكنة وازمنة واحوال يكون فيها أفضل من الفاضل لكن اول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد واخلاص الدين كله لله هو تحقيق قول لا اله الا الله[1]

من أعرض عن الأمر والنهي و الوعد و الوعيد ناظرا إلى القدر فقد ضل و من طلب القيام بالأمر والنهي معرضا عن القدر فقد ضل

الدعاء و السؤال من الأسباب

الجنة خلقها الله لأهل الإيمان به و طاعته فمن قدر أن يكون منهم يسره للإيمان و الطاعة فمن قال أنا أدخل الجنة سواء كنت مؤمنا أو كافرا إذا علم أنى من أهلها كان مفتريا على الله في ذلك فإن الله إنما علم أنه يدخلها بالإيمان فإذا لم يكن معه إيمان لم يكن هذا هو الذى علم الله أنه يدخل الجنة بل من لم يكن مؤمنا بل كافرا فإن الله يعلم أنه من أهل النار لامن أهل الجنة ولهذا أمر الناس بالدعاء و الإستعانة بالله و غير ذلك من الأسباب و من قال أنا لا أدعوا و لا أسأل إتكالا على القدر كان مخطئا أيضا لأن الله جعل الدعاء و السؤال من الأسباب التى ينال بها مغفرته و رحمته و هذاه و نصره و رزقه و إذا قدر للعبد خيرا يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاءوما قدره الله و علمه من أحوال العباد و عواقبهم فإنما قدره الله بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت فليس فى الدنيا و الآخرة شيء إلا بسبب و الله خالق الأسباب و المسببات ولهذا قال بعضهم الإلتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد و محو الأسباب أن تكون أسبابا نقص فى العقل و الإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع و مجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب فإن المطر إذا نزل و بذر الحب لم يكن ذلك كافيا فى حصول النبات بل لابد من ريح مربية بإذن الله و لابد من صرف الإنتفاء عنه فلابد من تمام الشروط و زوال الموانع و كل ذلك بقضاه الله و قدره و كذلك الولد لا يولد بمجرد إنزال الماء فى الفرج بل كم من إنزل و لم يولد له بل لا بد من أن الله شاء خلقه فتحبل المرأة و تربيه فى الرحم و سائر مايتم به خلقه من الشروط و زوال الموانع وكذلك أمر الأخرة ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة بل هي سبب و لهذا قال النبى صلى الله عليه و سلم أنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا و لا أنت يا رسول الله قال و لا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه و فضل و قد قال { ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }النحل32 فهذه باء السبب أى بسبب أعمالكم و الذى نفاه النبى صلى الله عليه و سلم باء المقابلة كما يقال إشتريت هذا بهذا أي ليس العمل عوضا و ثمنا كافيا فى دخول الجنة بل لابد من عفو الله و فضله و رحمته فبعفوه يمحوا السيئات و برحمته يأتى بالخيرات و بفضله يضاعف البركات وفى هذا الموضع ضل طائفتان من الناس فريق آمنوا بالقدر و ظنوا أن ذلك كاف فى حصول المقصود فأعرضوا عن الأسباب الشرعية و الأعمال الصالحة و هؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن يكفروا بكتب الله و رسله و دينه و فريق أخذوا يطلبون الجزاء من الله كما يطلبه الأجير من المستأجر متكلين على حولهم و قوتهم و عملهم و كما يطلبه المماليك و هؤلاءجهال ضلال فإن الله لم يأمرالعباد بما أمرهم به حاجة إليه و لا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا به و

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 257-264

لكن أمرهم بما فيه صلاحهم و نهاهم عما فيه فسادهم و هو سبحانه كما قال ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني و لن تبلغوا نفعي فتنفعوني فالملك إذا أمر مملوكيه بأمر أمرهم لحاجته إليهم و هم فعلوه بقوتهم التى لم يخلقها لهم فيطالبون بجزاء ذلك و الله تعالى غني عن العالمين فإن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم و إن أساؤا فلها لهم ماكسبوا و عليهم ما اكتسبوا {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ }فصلت46 وفى الحديث الصحيح عن الله تعالى أنه قال ياعبادى أني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ياعبادى أنكم تخطئون بالليل و النهار و أنا أغفرالذنوب جميعا و لا أبالي فاستغفروني أغفر لكم يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ياعبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني و لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ياعبادى لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ياعبادى لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكي شيئا ياعبادي لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم إجتمعوا فى صعيد و احد فسألونى فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك فى ملكي شيئا إلا كما ينقص البحر أن يغمس فيه المخيط غمسة و احدة ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن و جد خيرا فليحمد الله و من و جد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وهو سبحانه مع غناه عن العالمين خلقهم و أرسل إليهم رسولا يبين لهم ما يسعدهم و ما يشقيهم ثم أنه هدى عباده المؤمنين لما إختلفوا فيه من الحق بإذنه فمن عليهم بالإيمان و العمل الصالح فخلقه بفضله و إرساله الرسول بفضله و هدايته لهم بفضله و جميع ما ينالون به الخيرات من قواهم و غير قواهم هي بفضله فكذلك الثواب و الجراء هو بفضله و إن كان أوجب ذلك على نفسه كما حرم على نفسه الظلم و وعد بذلك كما قال { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}الأنعام54 و قال تعالى { وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ }الروم47 فهو و اقع لامحالة و اجب بحكم إيجابه و وعده لأن الخلق لا يوجبون على الله شيئا أو يحرمون عليه شيئا بل هم أعجز من ذلك و أقل من ذلك و كل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل كما فى الحديث المتقدم إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن و جد خيرا فليحمد الله و من و جد غيرذلك فلا يلومن إلا نفسه وفى الحديث الصحيح سيد الإستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني و أنا عبدك و أنا على عهدك و وعدك ما استطعت أعوذ بك من شرما صنعت أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبى فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت من قالها إذا أصبح موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة فقوله أبوء لك بنعمتك على و أبوء بذنبى إعتراف بإنعام الرب و ذنب العبد كما قال بعض السلف أنى أصبح بين نعمة تنزل من الله علي و بين ذنب يصعد مني إلى الله فأريد أن أحدث للنعمة شكرا و للذنب إستغفارا فمن أعرض عن الأمر والنهي و الوعد و الوعيد ناظرا إلى القدر فقد ضل و من طلب القيام بالأمر والنهي معرضا عن القدر فقد ضل بل المؤمن كما قال تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فنعبده إتباعا للأمر و نستعينه إيمانا بالقدر و فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال المؤمن القوي خير و أحب إلى الله من المؤمن الضعيف و فى كل خير أحرص على ما ينفعك و استعن بالله و لا تعجزن و إن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا و كذا و لكن قل قدر الله و ما شاء فإن لو تفتح عمل الشيطان فأمره النبى صلى الله عليه و سلم بشيئين أن يحرص على ما ينفعه و هو إمتثال الأمر و هو العبادة و هو طاعة الله و رسوله و أن يستعين بالله و هو يتضمن الإيمان بالقدر أنه لا حول و لا قوة إلا بالله و أنه ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن فمن ظن أنه يطيع الله بلا معونته كما يزعم القدرية و المجوسية فقد جحد قدرة الله التامة و مشيئته النافذة و خلقه لكل شيء و من ظن أنه إذا أعين على ما يريد و يسر له ذلك كان محمودا سواء و افق الأمر الشرعي أو خالفه

فقد جحد دين الله و كذب بكتبه و رسله و وعده و وعيده و إستحق من غضبه و عقابه أعظم ما يستحقه الأول فإن العبد قد يريد ما يرضاه و يحبه و يأمر به و يقرب إليه و قد يريد ما يبغضه الله و يكرهه و يسخطه و ينهى عنه و يعذب صاحبه فكل من هذين قد يسر له ذلك كما قال النبى صلى اللله عليه و سلم كل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة و أما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة و قد قال تعالى {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً{18} وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً{19} كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً{20}الإسراء18-20 و قال تعالى { فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16} الفجر15-16 بين سبحانه أنه ليس كل من إبتلاه فى الدنيا يكون قد أهانه بل هو يبتلى عبده بالسراء و الضراء فالمؤمن يكون صبارا شكورا فيكون هذا و هذا خيرا له كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال لايقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له و ليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له و إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له و المنافق هلوع جزوع كما قال تعالى { إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{19} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{21} إِلَّا الْمُصَلِّينَ{22} الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ{23} وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ{24} لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ{25} المعارج19-25 إلى قوله { أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ{35} المعارج35 ولما كان العبد ميسرا لمالا ينفعه بل يضره من معصية الله و البطر و الطغيان و قد يقصد عبادة الله و طاعته و العمل الصالح فلا يتأتى له ذلك أمر فى كل صلاة بأن يقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 و قد صح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال يقول الله عزوجل قسمت الصلاة بينى و بين عبدي نصفين نصفها لي و نصفها لعبدي و لعبدى ما سأل فإذا قال الحمد لله رب العالمين قال حمدني عبدي فإذا قال الرحمن الرحيم قال أثنى علي عبدي فإذا قال مالك يوم الدين قال مجدنى عبدي فإذا قال إياك نعبد و إياك نستعين قال هذه الآية بيني و بين عبدي و لعبدي ما سأل فإذا قال إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم و لا الضالين قال فهؤلاء لعبدى و لعبدي ما سأل و قال بعض السلف أنزل الله عز وجل مائة كتاب و أربعة كتب جمع علمها فى الكتب الأربعة التوراة و الإنجيل و الزبور و الفرقان و جمع الأربعة فى القرآن و علم القرآن في المفصل و علم المفصل فى الفاتحة و علم الفاتحة في قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فكل عمل يعمله العبد و لا يكون طاعة لله و عبادة و عملا صالحا فهو باطل فإن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله و إن نال بذلك العمل رئاسة و مالا فغاية المترئس أن يكون كفرعون و غاية المتمول أن يكون كقارون و قد ذكر الله فى سورة القصص من قصة فرعون و قارون ما فيه عبرة لأولي الألباب و كل عمل لا يعين الله العبد عليه فإنه لا يكون و لا ينفع فما لا يكون به لا يكون و ما لا يكون له لا ينفع و لا يدوم فلذلك أمر العبد أن يقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 والعبد له في المقدور حالان حال قبل القدر و حال بعده فعليه قبل المقدور أن يستعين بالله و يتوكل عليه و يدعوه فإذا قدر المقدور بغير فعله فعليه أن يصبر عليه أو يرضى به و إن كان بفعله و هو نعمة حمد الله على ذلك و إن كان ذنبا إستغفر إليه من ذلك وله فى المأمور حالان حال قبل الفعل و هو العزم على الإمتثال و الإستعانة بالله على ذلك و حال بعد الفعل و هو الأستغفار من التقصير و شكر الله على ما أنعم به من الخير و قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ }غافر55 أمره أن يصبر على المصائب المقدرة و يستغفر من الذنب و إن كان إستغفار كل عبد بحسبه فإن حسنات الأبرار سيئات

المقربين و قال تعالى { وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ }آل عمران186 و قال يوسف { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }يوسف90 فذكر الصبر على المصائب و التقوى بترك المعائب و قال النبى صلى الله عليه و سلم إحرص على ما ينفعك و استعن بالله و لا تعجزن و إن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا و كذا و لكن قل قدر الله و ما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان فأمره إذا أصابته المصائب أن ينظر إلى القدر و لا يتحسر على الماضي بل يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه و أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه فالنظر إلى القدر عند المصائب و الإستغفار عند المعائب قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {22} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ{23}الحديد22 -23 و قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}التغابن11 قال علقمة و غيره هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم و الله سبحانه و تعالى أعلم [1]

السبب المأمور به أو المباح لا ينافي وجوب التوكل على الله

قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم وكلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يقتضي وجوب التوكل على الله في الرزق المتضمن جلب المنفعة كالطعام ودفع المضرة كاللباس وأنه لا يقضي غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة وإنما القدرة التي تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك ولهذا قال { وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا }البقرة233 وقال {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ }النساء5 فالمأمور به هو المقدور للعباد وكذلك قوله { أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ{14} يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ{15} أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ{16} البلد 14 -15 وقوله { وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ }الحج36وقوله {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ }الحج28 وقال {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }يس47 فذم من يترك المأمور به اكتفاء بما يجري به القدر ومن هنا يعرف أن السبب المأمور به أو المباح لا ينافي وجوب التوكل على الله في وجود السبب بل الحاجة والفقر إلى الله ثابتة مع فعل السبب إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول المطلوب ولهذا لا يجب أن تقترن الحوادث بما قد يجعل سببا إلا بمشيئة الله تعالى فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فمن ظن الاستغناء بالسبب من التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل وأخل بواجب التوحيد ولهذا يخذل أمثال هؤلاء إذا اعتمدوا على الأسباب فمن رجا نصرا أو رزقا من غير الله خذله الله كما قال علي رضي الله عنه لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه وقد قال تعالى {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }فاطر2 وقال تعالى {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }يونس107 وقال { قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ }الزمر38 وهذا كما أن من أخذ يدخل في التوكل تاركا لما أمر به من الأسباب فهو أيضا جاهل ظالم عاص لله يترك ما أمره فإن فعل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 70-77

المأمور به عبادة لله وقد قال تعالى { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وقال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وقال { قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }الرعد30 وقال شعيب عليه السلام { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }هود88 وقال {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }الشورى10 وقال {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }الممتحنة4 فليس من فعل شيئا أمر به وترك ما أمر به من التوكل بأعظم ذنبا ممن فعل توكلا أمر به وترك فعل ما أمر به من السبب إذ كلاهما مخل ببعض ما وجب عليه وهما مع اشتراكهما في جنس الذنب فقد يكون هذا ألوم وقد يكون الآخر مع أن التوكل في الحقيقة من جملة الأسباب وقد روى أبو داود في سننه أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلي فقال المقضي عليه حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله لا يلوم على العجز لكن عليك بالكيس فإن غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن ب الله ولا تعجز فإن أصابك شيء فلا تقل لو إني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان ففي قوله صلى الله عليه وسلم احرص على ما ينفعك واستعن ب الله ولا تعجز أمر بالتسبب المأمور به وهو الحرص على المنافع وأمر مع ذلك بالتوكل وهو الاستعانة بالله فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين ونهى عن العجز الذي هو ضد الكيس كما قال في الحديث الآخر إن الله لا يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس وكما في الحديث الشامي الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله فالعاجز في الحديث مقابل الكيس ومن قال العاجز الذي هو مقابل البر فقد حرف الحديث ولم يفهم معناه ومنه الحديث كل شيء بقدر حتى العجز والكيس ومن ذلك ما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون يقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا سألوا الناس فقال الله تعالى {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}البقرة197 فمن فعل ما أمر به من التزود فاستعان به على طاعة الله وأحسن منه إلى من يكون محتاجا كان مطيعا لله في هذين الأمرين بخلاف من ترك ذلك ملتفتا إلى أزواد الحجيج كلا على الناس وإن كان مع هذا قلبه غير ملتفت إلى معين فهو ملتفت إلى الجملة لكن إن كان المتزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على الله ومواساة المحتاج فقد يكون في تركه لما أمر به من جنس هذا التارك للتزود المأمور به وفي هذه النصوص بيان غلط طوائف فطائفة تضعف أمر السبب المأمور به فتعده نقصا وقدحا في التوحيد والتوكل وأن تركة من كمال التوكل والتوحيد وهم في ذلك ملبوس عليهم وقد يقترن بالغلط اتباع الهوى في إخلاد النفس إلى البطالة ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك فإما أن يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبة ورهبة وإما أن يتركوا لأجل ما تبتلوا له من الغلو في التوكل واجبات أو مستحبات انفع لهم من ذلك كمن يصرف همته في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء أو نيل رزقه بلا سعي فقد يحصل ذلك لكن كان مباشرة الدواء الخفيف والسعي اليسير وصرف تلك الهمة والتوجه في علم صالح أنفع له بل قد يكون أوجب عليه من تبتله لهذا الأمر اليسير الذي قدره درهم أو نحوه وفوق هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضا نقصا وانقطاعا عن الخاصة ظنا أن ملاحظة ما فرع منه في القدر هو حال الخاصة وقد قال في الحديث كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم وقال فاستكسوني أكسكم وفي الطبراني أوغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم قال

ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع فإنه إن لم ييسره لم يتيسر وهذا قد يلزمه أن يجعل أيضا استهداء الله وعمله بطاعته من ذلك وقولهم يوجب دفع المأمور به مطلقا بل دفع المخلوق والمأمور وإنما غلطوا من حيث ظنوا سبق التقدير يمنع أن يعون بالسبب المأمور به كمن يتزندق فيترك الأعمال الواجبة بناء على أن القدر قد سبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة ولم يعلم أن القدر سبق بالأمور على ما هي عليه فمن قدره الله من أهل السعادة كان مما قدره الله يتيسر لعمل أهل السعادة ومن قدره من أهل الشقاء كان مما قدره أنه ييسره لعمل أهل الشقاء كما قد أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال في حديث علي بن أبي طالب وعمران بن حصين وسراقة بن جعشم وغيرهم ومنه حديث الترمذي حدثنا ابن أبي عم الجواب حدثنا سفيان عن الزهري عن أبي خزامة عن أبيه قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقي نسترقي بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وطائفة تظن أن التوكل انما هو من مقامات الخاصة المتقربين إلى الله بالنوافل كذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها كالحب والرجاء والخوف والشكر ونحو ذلك وهذا ضلال مبين بل جميع هذه الأمور فروض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان ومن تركها بالكلية فهو إما كافر وإما منافق لكن الناس هم فيها كما هم في الأعمال الظاهرة فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ونصوص الكتاب والسنة طافحة بذلك وليس هؤلاء المعرضون عن هذه الأمور علما وعملا بأقل لوما من التاركين لما أمروا به من أعمال ظاهرة مع تلبسهم ببعض هذه الأعمال بل استحقاق الذم والعقاب يتوجه إلى من ترك المأمور من الأمور الباطنة والظاهرة إن كانت الأمور الباطنة مبتدأ الأمور الظاهرة وأصولها والأمور الظاهرة كما لها وفروعها التي لا تتم إلا بها[1]

الاستعانة والتوكل

و الله سبحانه و تعالى أمر أن لايعبد الا اياه و أن لا يكون الدين إلا له و أن تكون الموالاة فيه و المعاداة فيه و أن لا يتوكل إلا عليه و لا يستعان إلا به فالمؤمن المتبع للرسل يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ليكون الدين كله لله لا له و إذا أمر أحد غيره بمثل ذلك أحبه و أعانه و سر بوجود مطلوبه وإذا أحسن إلى الناس فانما يحسن اليهم ابتغاء و جه ربه الأعلى و يعلم أن الله قد من عليه بأن جعله محسنا و لم يجعله مسيئا فيرى أن عمله لله و أنه بالله وهذا مذكور فى فاتحة الكتاب التى ذكرنا أن جميع الخلق محتاجون إليها أعظم من حاجتهم الى أي شيء ولهذا فرضت عليهم قراءتها فى كل صلاة دون غيرها من السور و لم ينزل فى التوارة و لا في الانجيل و لا فى الزبور و لا في القرآن مثلها فان فيها {إِيَّاكَ نَعْبُدُ و إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فالمؤمن يرى أن عمله لله لأنه إياه يعبد و أنه بالله لأنه إياه يستعين فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء و لا شكورا لأنه إنما عمل له ما عمل لله كما قال الأبرار {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً }الإنسان9 و لايمن عليه بذلك و لا يؤذيه فإنه قد علم أن الله هو المان عليه إذ استعمله فى الأحسان و أن المنة لله عليه و على ذلك الشخص فعليه هو أن يشكر الله إذ يسره لليسرى وعلى ذلك أن يشكر الله إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزق أو علم أو نصر أو غير ذلك ومن الناس من يحسن الى غيره ليمن عليه أو يرد الأحسان له بطاعته إليه و تعطيمة أو نفع آخر و قد يمن عليه فيقول أنا فعلت بك كذا فهذا لم يعبد الله و لم يستعنه و لا عمل لله و لا عمل بالله فهو المرائى وقد أبطل الله صدقة المنان و

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص:427- 430 و **مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 179**

صدقة المرائي قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ{264} وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{265}البقرة264 -265[1]

المحبة والإرادة

فالنور والمعرفة الذى هو أصل المحبة والإرادة ما تتميز به المحبة الإيمانية المحمدية المفصلة عن المجملة المشتركة وكما يقع هذا الإجمال فى المحبة يقع أيضا فى التوحيد قال الله تعالى فى أم الكتاب التى هى مفروضة على العبد وواجبة فى كل صلاة أن يقول { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{5} وقد ثبت فى الحديث الصحيح أن الله يقول قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين نصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد { الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{2} قال الله حمدنى عبدى واذا قال {الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ{3} قال الله أثنى على عبدى واذا قال { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ{4} قال مجدنى عبدى أو قال فوض الى عبدى واذا قال { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{5} قال فهذه الآية بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل فاذا قال {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} قال فهؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل ولهذا روى أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب جمع معانيها فى القرآن ومعانى القرآن فى المفصل ومعانى المفصل فى أم الكتاب ومعانى أم الكتاب فى هاتين الكلمتين { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{5} وهذا المعنى قد ثناه الله فى مثل قوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وفى مثل قوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }الرعد30 وقوله {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }الشورى10 وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول فى نسكه اللهم هذا منك ولك فهو سبحانه مستحق التوحيد الذى هو دعاؤه واخلاص الدين له دعاء العبادة بالمحبة والإنابة والطاعة والإجلال والإكرام والخشية والرجاء ونحو ذلك من معانى تألهه وعبادته ودعاء المسئلة والإستعانة بالتوكل عليه والإلتجاء اليه والسؤال له ونحو ذلك مما يفعل سبحانه بمقتضى ربوبيته وهو سبحانه الاول والآخر والباطن والظاهر ولهذا جاءت الشريعة الكاملة فى العبادة باسم الله وفى السؤال بإسم الرب فيقول المصلى والذاكر الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله وكلمات الأذان الله أكبر الله أكبر الى آخرها ونحو ذلك وفى السؤال { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا }الأعراف23 { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي }الأعراف151 {قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ }القصص17{ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي}القصص16 {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }آل عمران147 { رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ }المؤمنون118 ونحو ذلك[2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 330 مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 330

[2] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 455-456

العبادة والتوكل

واما المحبة لله والتوكل عليه والاخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض وهى حسنة محبوبة فى حق كل احد من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن قال ان هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط فى ذلك ان اراد خروج الخاصة عنها فان هذه لا يخرج عنها مؤمن قط وانما يخرج عنها كافر او منافق وقد تكلم بعضهم فى ذلك بكلام بينا غلطه فيه وانه تقصير في تحقيق هذه المقامات بكلام مبسوط وليس هذا موضعه ولكن هذه المقامات ينقسم الناس فيها الى خصوص وعموم فللخاصة خاصها وللعامة عامها مثال ذلك ان هؤلاء قالوا ان التوكل مناضلة عن النفس فى طلب القوت والخاص لا يناضل عن نفسه وقالوا المتوكل يطلب بتوكله امرا من الامور والعارف يشهد الامور بفروعها منها فلا يطلب شيئا فيقال اما الاول فان التوكل اعم من التوكل في مصالح الدنيا فان المتوكل يتوكل على الله فى صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وارادته وهذا اهم الامور اليه ولهذا يناجي ربه فى كل صلاة بقوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 كما فى قوله تعالى {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وقوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }هود88 وقوله { قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }الرعد30 فهو قد جمع بين العبادة والتوكل فى عدة مواضع لان هذين يجمعان الدين كله ولهذا قال من قال من السلف ان الله جمع الكتب المنزلة فى القرآن وجمع علم القرآن فى المفصل وجمع علم المفصل فى فاتحة الكتاب وجمع علم فاتحة الكتاب فى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وهاتان الكلمتان هما الجامعتان اللتان للرب والعبد كما فى الحديث الذي في صحيح مسلم عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله سبحانه قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين نصفها لي ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول العبد الحمد لله رب العالمين يقول الله حمدنى عبدي يقول العبد الرحمن الرحيم يقول الله اثنى علي عبدي يقول العبد مالك يوم الدين يقول الله مجدني عبدى يقول العبد اياك نعبد واياك نستعين يقول الله فهذه الآية بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل يقول العبد اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين يقول الله فهؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل فالرب سبحانه له نصف الثناء والخير والعبد له نصف الدعاء والطلب وهاتان جامعتان ما للرب سبحانه وما للعبد فاياك نعبد واياك نستعين للعبد وفي الصحيحين عن معاذ رضي الله عنه قال كنت رديفا للنبى صلى الله عليه وسلم على حمار فقال يا معاذ اتدري ما حق الله على العباد قلت الله ورسوله ما حق العباد على الله اذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله اعلم قال حقهم عليه ان لا يعذبهم والعبادة هي الغاية التى خلق الله لها العباد من جهة امر الله ومحبته ورضاه كما قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 وبها ارسل الرسل وانزل الكتب وهي اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته وكمال الذل لله ونهايته فالحب الخلي عن ذل والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة وانما العبادة ما يجمع كمال الا مرين ولهذا كانت العبادة لا تصلح الا الله وهي وان كانت منفعتها للعبد والله غني عن العالمين فهي له من جهة محبته لها ورضاه بها ولهذا كان الله اشد فرحا بتوبة العبد من الفاقد لراحلته عليها طعامه وشرابه فى ارض دوية مهلكة اذا نام آيسا منها ثم استيقظ فوجدها فالله أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته وهذا يتعلق به امور جليلة قد بسطناها وشرحناها في غير هذا الموضع والتوكل والاستعانة للعبد لانه هو الوسيلة والطريق الذي ينال به مقصوده ومطلوبه من العبادة فالاستعانة كالدعاء والمسئلة وقد روى الطبراني فى كتاب الدعاء عن النبى قال يقول الله عز وجل يا ابن آدم إنما هي أربع واحدة لي وواحدة لك وواحدة بيني وبينك وواحدة بينك وبين خلقى فاما التى لي فتعبدنى لا تشرك بي شيئا واما التى هي لك

فعملك اجازيك به احوج ما تكون اليه واما التى بينى وبينك فمنك الدعاء وعلى الاجابة واما التى بينك وبين خلقى فأت للناس ما تحب ان يأتوا اليك وكون هذا لله وهذا للعبد هو باعتبار تعلق المحبة والرضا ابتداء فان العبد ابتداء يحب ويريد ما يراه ملائما له والله تعالى يحب ويرضى ما هو الغاية المقصودة فى رضاه ويحب الوسيلة تبعا لذلك والا فكل مأمور به فمنفعته عائدة على العبد وكل ذلك يحبه الله ويرضاه وعلى هذا فالذي ظن ان التوكل من المقامات العامة ظن ان التوكل لا يطلب به الا حظوظ الدنيا وهو غلط بل التوكل فى الامور الدينية اعظم وايضا التوكل من الامور الدينية التى لا تتم الواجبات والمستحبات الا بها والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه و الزهد المشروع هو ترك الرغبة فيما لا ينفع فى الدار الآخرة وهو فضول المباح التى لا يستعان بها على طاعة الله كما ان الورع المشروع هو ترك ما قد يضر فى الدار الآخرة وهو ترك المحرمات والشبهات التى لا تستلزم تركها ترك ما فعله ارجح منها كالواجبات فاما ما ينفع في الدار الآخرة بنفسه او يعين على ما ينفع فى الدار الآخرة فالزهد فيه ليس من الدين بل صاحبه داخل فى قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ }المائدة87 كما ان الاشتغال بفضول المباحات هو ضد الزهد المشروع فان اشتغل بها عن فعل واجب او فعل محرم كان عاصيا والا كان منقوصا عن درجة المقربين الى درجة المقتصدين و ايضا فان التوكل هو محبوب لله مرضي له مأمور به دائما وما كان محبوبا لله مرضيا له مأمورا به دائما لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين فهذه ثلاثة اجوبة عن قولهم المتوكل يطلب حظوظه واما قولهم ان الامور قد فرغ منها فهذا نظير ما قاله بعضهم فى الدعاء انه لا حاجة اليه لان المطلوب ان كان مقدرا فلا حاجة اليه وان لم يكن مقدرا لم ينفع الدعاء وهذا القول من افسد الاقوال شرعا وعقلا وكذلك قول من قال التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة ولا يدفع به مضرة وانما هو عبادة محضة وان حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض وهذا وان كان قاله طائفة من المشائخ فهو غلط ايضا وكذلك قول من قال ان الدعاء انما هو عبادة محضة فهذه الاقوال وما اشبهها يجمعها اصل واحد وهو ان هؤلاء ظنوا ان كون الامور مقدرة مقضية يمنع ان تتوقف على اسباب مقدرة ايضا تكون من العبد ولم يعلموا ان الله سبحانه يقدر الامور ويقضيها بالأسباب التى جعلها معلقة بها من افعال العباد وغير افعالهم ولهذا كان طرد قولهم يوجب تعطيل الاعمال بالكلية وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم وآله وسلم عن هذا الاصل مرات فأجاب عنه كما اخرجا فى الصحيحين عن عمران بن حصين قال قيل لرسول الله وآله وسلم يا رسول الله أعلم اهل الجنة من اهل النار قال نعم قالوا ففيم العمل قال كل ميسر لما خلق له وفى الصحيحين عن علي بن ابي طالب قال كنا في جنازة فيها رسول الله فجلس ومعه مخصرة فجعل ينكت بالمخصرة فى الارض ثم رفع رأسه وقال ما من نفس منفوسة الا وقد كتب مكانها من النار او الجنة الا وقد كتبت شقية او سعيدة قال فقال رجل من القوم يا نبى الله افلا يمكث على كتابنا وندع العمل فمن كان من اهل السعادة ليكونن الى السعادة ومن كان من اهل الشقاوة ليكونن الى الشقاوة قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما اهل السعادة فييسرون للسعادة واما اهل الشقاوة فييسرون للشقاوة ثم قال نبى الله { فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى{5} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى{6} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى{7} وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى{8} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى{9} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{10} الليل 5-6 اخرجه الجماعة في الصحاح والسنن والمسانيد وروى الترمذى ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم سئل فقيل يا رسول الله ارأيت ادوية نتداوى بها ورقى نسترقة بها وتقى نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وقد جاء هذا المعنى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى عدة احاديث فبين صلى الله عليه وسلم وآله وسلم ان تقدم العلم والكتاب بالسعيد والشقي لا ينافى ان تكون سعادة هذا بالاعمال الصالحة

وشقاوة هذا بالاعمال السيئة فانه سبحانه يعلم الامور على ما هي عليه وكذلك يكتبها فهو يعلم ان السعيد يسعد بالاعمال الصالحة والشقي يشقى بالاعمال السيئة فمن كان سعيدا ييسر للاعمال الصالحة التى تقتضي السعادة ومن كان شقيا ييسر للاعمال السيئة التى تقضي الشقاوة وكلاهما ميسر لما خلق له وهو ما يصير اليه من مشيئة الله العامة الكونية التى ذكرها الله سبحانه فى كتابه فى قوله تعالى { وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ {118} إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ {119} هود118 -119 واما ما خلقوا له من محبة الله ورضاه وهو إرادته الدينية التى امروا بموجبها فذلك مذكور فى قوله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 والله سبحانه قد بين في كتابه فى كل واحدة من الكلمات و الامر و الارادة و الاذن و الكتاب و الحكم و القضاء و التحريم ونحو ذلك ما هو ديني موافق لمحبة الله ورضاه وامره الشرعى وما هو كوني موافق لمشيئته الكونية مثال ذلك انه قال فى الامر الدينى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى }النحل90 وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}النساء58 ونحو ذلك وقال فى الكونى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس82 وكذلك قوله {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً }الإسراء16 على احدى الاقوال فى هذه الاية وقال فى الارادة الدينية { يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ }البقرة185 {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }النساء26 { مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ }المائدة6 وقال فى الارادة الكونية { وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ }البقرة253وقال {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء }الأنعام125 وقال نوح عليه السلام {وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ }هود34 وقال تعالى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس82 وقال تعالى فى الاذن الديني {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ }الحشر5 وقال تعالى في الكونى { وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ }البقرة102 وقال تعالى فى القضاء الدينى {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ }الإسراء23 اي امر وقال تعالى فى الكونى {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ }فصلت12 وقال تعالى فى الحكم الدينى { أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ }المائدة1 وقال تعالى{ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ }الممتحنة10 وقال تعالى في الكونى عن ابن يعقوب{ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ }يوسف80 وقال تعالى {قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ }الأنبياء112 وقال تعالى فى التحريم الدينى {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ }المائدة3 {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ }النساء23 الآية وقال تعالى فى التحريم الكونى { فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ }المائدة26 وقال تعالى {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ{24} لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ{25} المعارج 24-25 وقال تعالى في الكلمات الدينية {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ }البقرة124 وقال تعالى فى الكونية { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ}الأعراف137 ومنه قوله المستفيض عنه من وجوه فى الصحاح والسنن والمسانيد انه كان يقول فى استعاذته اعوذ بكلمات الله التامات التى لايجاوزهن برولا فاجر ومن المعلوم ان هذا هو الكونى الذي لا يخرج منه شيء عن مشيئته وتكوينه واما الكلمات الدينية فقد خالفها الفجار بمعصيته والمقصود هنا انه بين ان العواقب التى خلق لها الناس من سعادة وشقاوة ييسرون لها

بالاعمال التى يصيرون بها الى ذلك كما ان سائر المخلوقات كذلك فهو سبحانه يخلق الولد وسائر الحيوان في الارحام بما يقدره من اجتماع الابوين على النكاح واجتماع المائين فى الرحم فلو قال الانسان انا اتوكل ولا أطأ زوجتى فان كان قد قضي لى بولد وجد والا لم يوجد ولا حاجة الى وطء كان احمق بخلاف ما اذا وطيء وعزل الماء فان عزل الماء لا يمنع انعقاد الولد اذا شاء الله اذ قد يسبق الماء بغير اختياره ومن هذا ما ثبت فى الصحيحين عن ابى سعيد الخدري قال خرجنا مع رسول الله فى غزوة بنى المصطلق فاصبنا سبيا من العرب فاشتهينا النساء واشتدت علينا العزبة واحببنا العزل فسألنا عن ذلك رسول الله فقال ما عليكم الا تفعلوا فان الله قد كتب ما هو خالق الى يوم القيامة وفى صحيح مسلم عن جابر ان رجلا أتى النبى صلى الله عليه سلم فقال ان لي جارية هي خادمتنا وسانيتنا في النخل وانا اطوف عليها واكره ان تحمل فقال اعزل عنها ان شئت فانه سيأتيها ما قدر لها وهذا مع ان الله سبحانه قادر على ما قد فعله من خلق الانسان من غير ابوين كما خلق آدم ومن خلقه من اب فقط كما خلق حواء من ضلع آدم القصير ومن خلقه من ام فقط كما خلق المسيح بن مريم عليه السلام لكن خلق ذلك بأسباب اخرى غير معتادة وهذا الموضع وان كان انما يجحده الزنادقة المعطلون للشرائع فقد وقع فى كثير من دقه كثير من المشائخ المعظمين يسترسل احدهم مع القدر غير محقق لما امر به ونهى عنه ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل والجري مع الحقيقة القدرية ويحسب ان قول القائل ينغي للعبد ان يكون مع الله كالميت بين يدي الغاسل يتضمن ترك العمل بالامر والنهي حتى يترك ما امر به ويفعل ما نهى عنه وحتى يضعف عنده النور والفرقان الذى يفرق به بين ما امر الله به واحبه ورضيه وبين ما نهى عنه وابغضه وسخطه فيسوى بين ما فرق الله بينه كما قال تعالى {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ }الجاثية21 وقال تعالى {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ {35} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{36}القلم35-36 وقال تعالى {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }ص28 وقال تعالى { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ }الزمر9 وقال تعالى { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ{19} وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ{20} وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ{21} وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ{22} فاطر 19-22 وامثال ذلك حتى يفضي الامر بغلاتهم الى عدم التمييز بين الامر بالمأمور النبوى الالهي الفرقاني الشرعى الذي دل عليه الكتاب والسنة وبين ما يكون فى الوجود من الاحوال التى تجري على ايدي الكفار والفجار فيشهدون وجه الجمع من جهة كون الجميع بقضاء الله وقدره وربوبيته وارادته العامة وأنه داخل فى ملكه ولا يشهدون وجه الفرق الذي فرق الله به بين اوليائه واعدائه والابرار والفجار والمؤمنين والكافرين واهل الطاعة الذين اطاعوا امره الدينى واهل المعصية الذين عصوا هذا الامر ويستشهدون في ذلك بكلمات نقلت عن بعض الاشياخ او ببعض غلطات بعضهم وهذا اصل عظيم من اعظم ما يجب الاعتناء به على اهل طريق الله السالكين سبيل الارادة ارادة الذين يريدون وجهه فانه قد دخل بسبب اهمال ذلك على طوائف منهم من الكفر والفسوق والعصيان مالا يعلمه الا الله حتى يصيروا معاونين على البغي والعدوان للمسلطين فى الارض من اهل الظلم والعلو كالذين يتوجهون بقلوبهم في معاونة من يهوونه من اهل العلو فى الارض والفساد ظانين انهم اذا كانت لهم احوال اثروا بها فى ذلك كانوا بذلك من اولياء الله فان القلوب لها من التأثير اعظم مما للابدان لكن ان كانت صالحة كان تأثيرها صالحا وان كانت فاسدة كان تأثيرها فاسدا فالاحوال يكون تأثيرها محبوبا لله تارة ومكروها لله اخرى وقد تكلم الفقهاء على وجوب القود على من يقتل غيره فى الباطن حيث يجب القود فى ذلك ويستشهدون ببواطنهم وقلوبهم الامر الكوني

ويعدون مجرد خرق العادة لاحدهم بكشف يكشف له او تأثير يوافق ارادته هو كرامة من الله له ولا يعلمون انه فى الحقيقة اهانة وان الكرامة لزوم الاستقامة وان الله لم يكرم عبده بكرامة اعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة اوليائه ومعاداة اعدائه وهؤلاء هم اولياء الله الذين قال الله فيهم {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }يونس62 فإن كانوا موافقين له فيما اوجبه عليهم فهم من المقتصدين وان كانوا موافقين فيما اوجبه واحبه فهم من المقربين مع ان كل واجب محبوب وليس كل محبوب واجبا واما ما يبتلي الله به عبده من السراء بخرق العادة او بغيرها او بالضراء فليس ذلك لاجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه بل قد يسعد بها قوم اذا اطاعوه فى ذلك وقد يشقى بها قوم اذا عصوه فى ذلك قال الله تعالى { فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16} الفجر15-16 ولهذا كان الناس فى هذه الامور على ثلاثة اقسام قسم ترتفع درجاتهم بخرق العادة اذا استعملوها فى طاعة الله وقوم يتعرضون بها لعذاب الله اذا استعملوها فى معصية الله كبلعام وغيره وقوم تكون في حقهم بمنزلة المباحات والقسم الاول هم المؤمنون حقا المتبعون لنبيهم سيد ولد آدم الذي انما كانت خوارقه لحجة يقيم بها دين الله او لحاجة يستعين بها على طاعة الله ولكثرة الغلط فى هذا الاصل نهى رسول الله عن الاسترسال مع القدر بدون الحرص على فعل المأمور الذي ينفع العبد فروى مسلم فى صحيحه عن ابى هريرة قال قال رسول الله المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وان اصابك شيء فلا تقل لو انى فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان وفي سنن ابى داود ان رجلين اختصما الى النبى صلى الله عليه وسلم فقضي على احدهما فقال المقضى عليه حسبى الله ونعم الوكيل فقال رسول الله ان الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فاذا غلبك امر فقل حسبى الله ونعم الوكيل فأمر النبى لقوله تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وقوله تعالى { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 فان الحرص على ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته اذ النافع له هو طاعة الله ولا شيء انفع له من ذلك وكل ما يستعان به على الطاعة فهو طاعة وان كان من جنس المباح قال النبى فى الحديث الصحيح لسعد انك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الا ازددت بها درجة ورفعه حتى اللقمة تضعها فى في امرأتك فأخبر النبى ان الله يلوم على العجز الذي هو ضد الكيس وهو التفريط فيما يؤمر بفعله فان ذلك ينافى القدرة المقارنة للفعل وان كان لا ينافى القدرة المتقدمة التى هى مناط الامر والنهي فإن الاستطاعة التى توجب الفعل تكون مقارنة له ولا تصلح الا لمقدورها كما ذكرها الله تعالى في قوله {مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ }هود20 وفى قوله { وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً }الكهف101 واما الاستطاعة التى يتعلق بها الامر والنهي فتلك قد يقترن بها الفعل وقد لا يقترن كما فى قوله تعالى { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً }آل عمران97 وقول النبى لعمران ابن حصين صل قائما فان لم تستطع فقاعدا فان لم تستطيع فعلى جنب فهذا الموضع قد انقسم الناس فيه الى اربعة اقسام قوم ينظرون الى جانب الامر والنهي والعبادة والطاعة شاهدين لالهية الرب سبحانه الذي امروا ان يعبدوه ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان لان الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ اليه والدعاء له هي التى تقوى العبد وتيسر عليه الامور ولهذا قال بعض السلف من سره ان يكون اقوى الناس فليتوكل على الله وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو ان رسول الله صفته في التوراة انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين انت عبدى ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا

غليظ ولا صخاب بالاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يجزى بالسيئة الحسنة ويعفو ويغفر ولن اقبضه حتى اقيم به الملة العوجاء فأفتح به اعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا بان يقولوا لا اله الا الله ولهذا روى ان حملة العرش انما اطاقوا حمل العرش بقولهم لا حول ولا قوة الا بالله وقد ثبت في الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم انها كنز من كنوز الجنة قال تعالى { وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ }الطلاق3 وقال تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }آل عمران173 الى قوله { فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }آل عمران175 وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله { وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }آل عمران173 قالها ابراهيم الخليل حين القى فى النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم و قسم ثان يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم اليه ويستعينون به لكن على اهوائهم واذواقهم غير ناظرين الى حقيقة امره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته وهذا حال كثير من المتفقرة والمتصوفة ولهذا كثيرا ما يعملون على الاحوال التى يتصرفون بها فى الوجود ولا يقصدون ما يرضى الرب ويحبه وكثيرا ما يغلطون فيظنون ان معصيته هي مرضاته فيعودون الى تعطيل الامر والنهي ويسمون هذا حقيقة ويظنون ان هذه الحقيقة القدرية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية التى هي تحوى مرضاة الرب ومحبته وامره ونهيه ظاهرا وباطنا وهؤلاء كثيرا ما يسلبون احوالهم وقد يعودون الى نوع من المعاصي والفسوق بل كثير منهم يرتد عن الاسلام لان العاقبة للتقوى ومن لم يقف عند امر الله ونهيه فليس من المتقين فهم يقعون فى بعض ما وقع المشركون فيه تارة بدعة يظنونها شرعة وتارة فى الاحتجاج بالقدر على الامر والله تعالى لما ذكر ما ذم به المشركين في سورة الانعام والاعراف ذكر ما ابتدعوه من الدين وجعلوه شرعه كما قال تعالى {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }الأعراف28 وقد ذمهم على ان حرموا مالم يحرمه الله وان شرعوا مالم يشرعه الله وذكر احتجاجهم بالقدر فى قوله تعالى {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ }الأنعام148 ونظيرها فى النحل ويس والزخرف وهؤلاء يكون فيهم شبه من هذا وهذا واما القسم الثالث وهو من اعرض عن عبادة الله واستعانته به فهؤلاء شر الاقسام و القسم الرابع هو القسم المحمود وهو حال الذين حققوا {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وقوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 فاستعانوا به على طاعته وشهدوا انه الههم الذي لا يجوز ان يعبد الا اياه بطاعته وطاعة رسوله وانه ربهم الذي ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع وانه {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ }فاطر2 {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ }يونس107 {قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ }الزمر38 ولهذا قال طائفة من العلماء الالتفات الى الاسباب شرك فى التوحيد ومحو الاسباب ان تكون اسبابا نقص فى العقل والاعراض عن الاسباب بالكلية قدح في الشرع وانما التوكل المأمور به ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع فقد تبين ان من ظن التوكل من مقامات عامة اهل الطريق فقد غلط غلطا شديدا وان كان من اعيان المشائخ كصاحب علل المقامات وهو من اجل المشائخ واخذ ذلك عنه صاحب محاسن المجالس وظهر ضعف حجة من قال ذلك لظنه ان المطلوب به حظ العامة فقط وظنه انه لا فائدة له فى تحصيل المقصود وهذه حال من جعل الدعاء كذلك وذلك بمنزلة من جعل الاعمال المأمور بها كذلك كمن اشتغل بالتوكل عن ما يجب عليه من الاسباب التى هى عبادة وطاعة مأمور

بها فان غلط هذا في ترك الاسباب المأمور بها التى هي داخلة فى قوله تعالى { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 كغلط الاول في ترك التوكل المأمور به الذي هو داخل فى قوله تعالى { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 لكن يقال من كان توكله على الله ودعاؤه له هو فى حصول مباحات فهو من العامة وان كان فى حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة كما ان من دعاه وتوكل عليه فى حصول محرمات فهو ظالم لنفسه ومن اعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله بل خارج عن حقيقة الايمان فكيف يكون هذا المقام للخاصة قال الله تعالى {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ }يونس84 وقال تعالى {إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ }آل عمران160 وقال تعالى { وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }المائدة11 وقال تعالى {قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ}الزمر38 الى قوله { قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ }الزمر38 وقد ذكر الله هذه الكلمة { حَسْبِيَ اللَّهُ }الزمر38 فى جلب المنفعة تارة وفى دفع المضرة اخرى فالأولى فى قوله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ }التوبة59 الآية و الثانية فى قوله {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }آل عمران173 وفى قوله تعالى {وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ }الأنفال62 وقوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ }التوبة59 يتضمن الامر بالرضا والتوكل والرضا والتوكل يكتنفان المقدور فالتوكل قبل وقوعه والرضا بعد وقوعه ولهذا كان النبى يقول فى الصلاة اللهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق احيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفنى اذا كانت الوفاة خيرا لي اللهم انى اسألك خشيتك في الغيب والشهادة واسألك كلمة الحق في الغضب والرضا واسألك القصد فى الفقر والغنى واسألك نعيما لا ينفد واسألك قرة عين لا تنقطع اللهم انى اسألك قرة عين لا تنقطع اللهم اني اسالك الرضا بعد القضاء واسألك برد العيش بعد الموت واسألك لذة النظر الى وجهك واسألك الشوق الى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين رواه احمد والنسائى من حيث عمار بن ياسر واما ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لا حقيقة الرضا ولهذا كان طائفة من المشائخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء فاذا وقع انفسخت عزائمهم كما يقع نحو ذلك فى الصبر وغيره كما قال تعالى {وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ }آل عمران143 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ{2} كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ{3} إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ{4}الصف 2-4 نزلت هذه الآية لما قالوا لو علمنا أى الاعمال احب الى الله لعملناه فانزل الله سبحانه وتعالى آية الجهاد فكرهه من كرهه ولهذا كره للمرء ان يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه مالا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك او يطلب ولاية او يقدم على بلد فيه طاعون كما ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن النبى انه نهى عن النذر وقال انه لا ياتى بخير وانما يستخرج به من البخيل وثبت عن في الصحيحين انة قال لعبد الرحمن بن سمرة لاتسأل الامارة فانك ان اعطيتها عن مسألة وكلت اليها وان اعطيتها من غير مسألة اعنت عليها ةاذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك وثبت عنة فى الصحيحين انة قال فى الطاعون اذا سمعتم بة بأرض فلا تقدموا علية واذا وقع بأرض وانتم بها فلآ تخرجوا فرارا منة وثبت عنة فى الصحيحين انة قال لاتتمنوا لقاء العدو واسالوا اللة العافية ولكن اذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلآل السيوف وامثال ذلك مما يقتضى ان

الإنسان لاينبغى ان يسعى فيما يوجب علية اشياء ويحرم علية اشياء فيبخل بالوفاء كما يفعل كثير ممن يعاهد اللة عهودا على امور وغالب هؤلآء يبتلون بنقض العهود ويقتضى ان الانسان إذا ابتلى فعلية ان يصبر ويثبت ولا ينكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات ولا بد فى جميع ذلك من الصبر ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على اداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل فى ذلك الصبر على المصائب عن ان يجزع فيها والصبر عن اتباع اهواء النفوس فيما نهى اللة عنة وقد ذكر الله الصبر فى كتابه فى اكثر من تسعين موضعا وقرنه بالصلاة فى قوله تعالى {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ }البقرة45 {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }البقرة153[1]

الموالاة لله

و الله سبحانه أمر أن لا يعبد إلا إياه و لا يكون الدين إلا له و تكون الموالاة فيه و المعاداة فيه و لا يتوكل إلا عليه و لا يستعان إلا به فالمتبع للرسل يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ليكون الدين لله لا له فإذا أمر غيره بمثل ذلك أحبه و أعانه و سر به و إذا أحسن الى الناس فإنما يحسن إليهم إبتغاء و جه ربه الأعلى و يعلم أن الله قد من عليه بأن جعله محسنا فيرى أن عمله لله و بالله و هذا مذكور فى الفاتحة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكورا و لا يمن عليه بذلك فإنه قد علم أن الله هو المان عليه إذ إستعمله فى الإحسان فعليه أن يشكر الله إذ يسره لليسرى و على ذلك أن يشكر الله إذا يسر له ما ينفعه و من الناس من يحسن الى غيره ليمن عليه أو ليجزيه بطاعته له و تعظيمه إياه أو نفع آخر و قد يمن عليه فيقول أنا فعلت و فعلت بفلان فلم يشكر و نحو ذلك فهذا لم يعبد الله و لم يستعنه فلا عمل لله و لا عمل به فهو كالمرائي وقد أبطل الله صدقة المنان و صدقة المرائى فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ {264} وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{265}البقرة264 -265 قال قتادة تثبيتا من أنفسهم إحتسابا من عند أنفسهم و قال الشعبي يقينا و تصديقا من أنفسهم و قيل يخرجونها طيبة بها أنفسهم على يقين بالثواب و تصديق بوعد الله يعلمون أن ما أخرجوه خير لهم مما تركوه قلت إذا كان المعطي محتسبا للأجر من الله لا من الذي أعطاه فلا يمن عليه [2]

ولله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم وللأنبياء حق وللمؤمنين حق ولبعضهم على بعض حق فحقه تبارك وتعالى أن يعبدوه لا يشركوا به كما تقدم فى حديث معاذ ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين ويتوكلوا عليه ويرغبوا اليه ولا يجعلوا لله ندا لا فى محبته ولا خشيته ولا دعائه ولا الإستعانة به كما فى الصحيحين أنه قال من مات وهو يدعو ندا من دون الله دخل النار وسئل أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك وقيل له ما شاء الله وشئت فقال

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 18-39

[2] **مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 221 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 90**

أجعلتنى لله ندا بل ما شاء الله وحده وقال تعالى { فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }البقرة22 وقال تعالى فى فاتحة الكتاب التى هى أم القرآن {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}5{ [1]

إستعينوا بالله و اصبروا

وكان نبينا صلى الله عليه و سلم متبعا ما أمر به من الصبر على أذى الخلق ففي الصحيحين عن عائشة قالت ما ضرب رسول الله صلى الله عليه و سلم بيده خادما له و لا دابة و لا شيئا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله و لا نيل منه شيء قط فإنتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله فإذا إنتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله و قال أنس خدمت رسول الله صلى الله عليه و سلم عشر سنين فما قال لشيء فعلته لم فعلته و لا لشيء لم أفعله لم لا فعلته و كان بعض أهله إذا عتبني على شيء يقول دعوه فلو قضى شيء لكان و فى السنن عن إبن مسعود رضى الله عنه أنه ذكر للنبى صلى الله عليه و سلم قول بعض من آذاه فقال دعنا منك فقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر فكان يصبر على أذى الناس له من الكفار و المنافقين و أذى بعض المؤمنين كما قال تعالى { إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ }الأحزاب53 و كان يذكر أن هذا مقدر والمؤمن مأمور بأن يصبر على المقدور و لذلك قال { وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً }آل عمران120 فالتقوى فعل المأمور و ترك المحظور و الصبر على أذاهم ثم أنه حيث أباح المعاقبة قال {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ {126} وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ{127} إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ{128} النحل126-128 فأخبر أن صبره بالله فالله هو الذي يعينه عليه فإن الصبر على المكاره بترك الإنتقام من الظالم ثقيل على الأنفس لكن صبره بالله كما أمره أن يكون لله فى قوله {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ }المدثر7 لكن هناك ذكره فى الجملة الطلبية الأمرية لأنه مأمور أن يصبر لله لا لغيره و هنا ذكره فى الخبرية فقال {وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ {127} النحل127 فإن الصبر و سائر الحوادث لا تقع إلا بالله ثم قد يكون ذلك و قد لا يكون فما لايكون بالله لا يكون و ما لا يكون لله لا ينفع و لا يدوم و لا يقال و اصبر بالله فإن الصبر لا يكون إلا بالله لكن يقال إستعينوا بالله و اصبروا فنستعين بالله على الصبر و كما أن الإنسان مأمور بشهود القدر و توحيد الربوبية عند المصائب فهو مأمور بذلك عند ما ينعم الله عليه من فعل الطاعات فيشهد قبل فعلها حاجته و فقره إلى إعانة الله له و تحقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 و يدعو بالأدعية التى فيها طلب اعانة الله له على فعل الطاعات كقوله أعني على ذكرك و شكرك و حسن عبادتك و قوله يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك و يا مصرف القلوب أصرف قلبى إلى طاعتك و طاعة رسولك و قوله ربنا لا تزع قلوبنا بعد إذ هديتنا و حب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب و قوله ربنا آتنا من لدنك رحمة و هيىء لنا من أمرنا رشدا و مثل قوله اللهم الهمني رشدي و اكفني شر نفسي ورأس هذه الأدعية و أفضلها قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7}الفاتحة6-7 فهذا الدعاء أفضل الأدعية و أوجبها على الخلق فإنه يجمع صلاح العبد فى الدين و الدنيا و الآخرة و كذلك الدعاء بالتوبة فإنه يتضمن الدعاء بأن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 305

يلهم العبد التوبة و كذلك دعاء الإستخارة فإنه طلب تعليم العبد ما لم يعلمه و تيسيره له و كذلك الدعاء الذي كان النبى صلى الله عليه و سلم يدعو به إذا قام من الليل و هو فى الصحيح اللهم رب جبرائيل و ميكائيل و إسرافيل فاطر السموات و الأرض عالم الغيب و الشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا يختلفون إهدني لما إختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم وكذلك الدعاء الذي فيه اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا و بين معصيتك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك و من اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا و كذلك الدعاء باليقين و العافية كما في حديث أبي بكر و كذلك قوله اللهم أصلح لي قلبى و نيتى و مثل قول الخليل و إسماعيل { وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ}البقرة128 وهذه أدعية كثيرة تتضمن إفتقار العبد إلى الله فى أن يعطيه الإيمان و العمل الصالح فهذا إفتقار و إستعانه بالله قبل حصول المطلوب فإذا حصل بدعاء أو بغير دعاء شهد إنعام الله فيه و كان في مقام الشكر و العبودية لله و إن هذا حصل بفضله و إحسانه لابحول العبد و قوته فشهود القدر في الطاعات من أنفع الأمور للعبد و غيبته عن ذلك من أضر الأمور به فإنه يكون قدريا منكرا لنعمة الله عليه بالإيمان و العمل الصالح و إن لم يكن قدري الإعتقاد كان قدري الحال و ذلك يورث العجب و الكبر و دعوى القوة و المنة بعمله و إعتقاد إستحقاق الجزاء على الله به فيكون من يشهد العبودية مع الذنوب و الإعتراف بها لا مع الإحتجاج بالقدر عليها خيرا من هذا الذي يشهد الطاعة منه لا من إحسان الله إليه و يكون أولئك المذنبون بما معهم من الإيمان أفضل من طاعة بدون هذا الإيمان[1]

المؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على المقدور

والمؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على المقدور كما قال تعالى فى قصة يوسف { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }يوسف90 فالتقوى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا قال الله تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } غافر55 فأمره مع الاستغفار بالصبر فإن العباد لابد لهم من الاستغفار أولهم وآخرهم قال النبى فى الحديث الصحيح يا أيها الناس توبوا الى ربكم فوالذى نفسى بيده إنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وقال انه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة وكان يقول اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى واسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى اللهم اغفر لى خطئى وعمدى وهزلى وجدى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر وقد ذكر عن آدم أبى البشر انه استغفر ربه وتاب اليه فاجتباه ربه فتاب عليه وهداه وعن ابليس أبى الجن لعنه الله أنه أصر متعلقا بالقدر فلعنه وأقصاه فمن أذنب وتاب وندم فقد أشبه أباه ومن أشبه أباه فما ظلم قال الله تعالى { وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً {72} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{73} الأحزاب72-73 ولهذا قرن الله سبحانه بين التوحيد والإستغفار فى غير آية كما قال تعالى { أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ }فصلت6 {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}محمد19 وفى الحديث الذى رواه ابن أبى عاصم وغيره يقول الشيطان أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 330-333

فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وقد ذكر سبحانه عن ذى النون انه {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ{87} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ{88} الانبياء 87-88 قال النبى دعوة أخى ذى النون ما دعا بها مكروب الا فرج الله كربه وجماع ذلك انه لابد له فى الأمر من أصلين ولابد له فى القدر من أصلين ففى الأمر عليه الإجتهاد فى الإمتثال علما وعملا فلا تزال تجتهد فى العلم بما أمر الله به والعمل بذلك ثم عليه أن يستغفر ويتوب من تفريطه فى المأمور وتعديه الحدود ولهذا كان من المشروع أن يختم جميع الاعمال بالإستغفار فكان النبى اذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقد قال الله تعالى { وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ }آل عمران17 فقاموا بالليل وختموه بالإستغفار وآخر سورة نزلت قول الله تعالى (إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3}النصر1-3 وفى الصحيح انه كان يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى يتأول القرآن وأما فى القدر فعليه أن يستعين بالله فى فعل ما أمر به ويتوكل عليه ويدعوه ويرغب اليه ويستعيذ به ويكون مفتقرا اليه فى طلب الخير وترك الشر وعليه أن يصبر على المقدور ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه واذا آذاه الناس علم أن ذلك مقدر عليه وهم مأمورون أن ينظروا الى القدر فى المصائب وأن يستغفروا من المعائب كما قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ }غافر55 فمن راعى الأمر والقدر كما ذكر كان عابدا لله مطيعا له مستعينا به متوكلا عليه من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين فى مواضع كقوله{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وقوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وقوله {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }الشورى10 {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }هود88 وقوله { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً{3} الطلاق2-3 فالعبادة لله والاستعانة به وكان النبى يقول عند الأضحية وكان النبى يقول عند الأضحية اللهم منك ولك فما لم يكن بالله لا يكون فانه لا حول ولا قوة إلا بالله وما لم يكن لله فلا ينفع ولا يدوم ولابد فى عبادته من أصلين أحدهما اخلاص الدين له والثانى موافقة أمره الذى بعث به رسله ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى دعائه اللهم اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وقال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً }هود7 قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا على ما أخلصه وأصوبه قال إذا كان العمل خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة [1]

والمصائب التى تصيب العباد يؤمرون فيها بالصبر فإن هذا هو الذى ينفعهم واما لومهم لمن كان سببا فيها فلا فائدة لهم فى ذلك وكذلك ما فاتهم من الأمور التى تنفعهم يؤمرون فى ذلك بالنظر إلى القدر وأما التأسف والحزن فلا فائدة فيه فما جرى به القدر من فوت منفعة لهم أو حصول مضرة لهم فلينظروا فى ذلك إلى القدر وأما ما كان بسبب أعمالهم فليجتهدوا فى التوبة من المعاصى والإصلاح فى المستقبل فإن هذا الأمر ينفعهم وهو مقدور لهم بمعونة الله لهم وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى أنه قال المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير إحرص على

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 123

ما ينفعك وإستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا و كذا ولكن ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان أمر النبى بحرص العبد على ما ينفعه والإستعانة بالله ونهاه عن العجز وأنفع ما للعبد طاعة الله ورسوله وهى عبادة الله تعالى وهذان الأصلان هما حقيقة قوله تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 ونهاه عن العجز وهو الإضاعة والتفريط والتوانى كما قال فى الحديث الآخر الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من إتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى رواه الترمذى وفى سنن ابى داود أن رجلين تحاكما إلى النبى فقضى على أحدهما فقال المقضى عليه حسبى الله ونعم الوكيل فقال النبى إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل حسبى الله ونعم الوكيل فالكيس ضد العجز وفى الحديث كل شيء بقدر حتى العجز والكيس رواه مسلم وليس المراد بالعجز فى كلام النبى ما يضاد القدرة فإن من لا قدرة له بحال لا يلام ولا يؤمر بما لا يقدر عليه بحال ثم لما أمره بالإجتهاد والإستعانة بالله ونهاه عن العجز أمره إذا غلبه أمر أن ينظر إلى القدر ويقول قدر الله وما شاء فعل ولا متحسر ويتلهف ويحزن ويقول لو أنى فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا فإن لو تفتح عمل الشيطان وقد قال بعض الناس فى هذا المعنى الأمر أمران أمر فيه حيلة وأمر لا حيلة فيه فما فيه حيلة لا يعجز عنه وما لا حيلة فيه لا يجزع منه وهذا هو الذى يذكره أئمة الدين [1]

الاطلاق والتقييد فى الاسماء

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ومن هذا الباب لفظ العبادة فاذا أمر بعبادة الله مطلقا دخل فى عبادته كل ما أمر الله به فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به فيدخل ذلك فى مثل قوله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 وفى قوله {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً }النساء36 وقوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ۔ }البقرة21 وقوله {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ }الزمر2 {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي }الزمر14 وقوله { أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ }الزمر64 ثم قد يقرن بها اسم آخر كما فى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وقوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وقول نوح { اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ }نوح3 [2]

المقصود بالدعاء

و الدعاء قصد المدعو و التوجه إليه إما على وجه المسألة و إما على وجه العبادة المحضة لأن دعاء الشيء هو طلبه و إرادته سواء طلب لذاته أو للأمر منه و من ذلك قوله تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ }غافر60 فإنه فسر بالمسألة و بالعبادة و قوله تعالى {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ }القصص88 فان الدعاء في هذه المواضع يراد به نفس اتخاذ المدعو ربا و إلها بحيث يسأل و يعبد و قد فصل معنى الدعاء بقوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 و قوله تعالى {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 و في قوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }هود88 و نحو ذلك من الآي فهو يعبد من حيث هو اله و يسأل من حيث هو رب و إن كان كل عابد سائلا و طالبا و كل سائل عابدا و

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 506
[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 163

قاصدا من جهة الإلتزام فسميت العبادات لله المحضة مثل الصلاة و الذكر و السؤال و الركوع و السجود و الطواف صلاة أو هي دعاء لله و عبادة لله بلا توسط شيء آخر و لهذا قال ابن مسعود ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة و إن كنت في السوق[1]

ولفظ دعاء الله في القرآن يراد به دعاء العبادة ودعاء المسألة فدعاء العبادة يكون الله هو المراد به فيكون الله هو المراد ودعاء المسألة يكون الله هو المراد منه كما في قول المصلي {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فالعبادة إرادته والاستعانة وسيلة الى العبادة فالعبادة إرادة المقصود وارادة الاستعانة ارادة الوسيلة الى المقصود ولهذا قدم قوله إياك نعبد وان كانت لا تحصل إلا بالاستعانة فان العلة الغائبة مقدمة في التصور والقصد وان كانت مؤخرة في الوجود والحصول وهذا إنما يكون لكونه هو المحبوب لذاته لكن المراد به محبة مختصة به على سبيل الخضوع له والتعظيم وعلى سبيل تخصيصها به فيعبر عنها بلفظ الإنابة والعبادة ونحو ذلك اذ أن لفظ المحبة جنس عام يدخل فيه أنواع كثيرة فلا يرضى لله بالقدر المشترك بل اذا ذكر من يحب غير الله ذكر الله قال تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ }البقرة165 [2]

---

[1] شرح العمدة ج: 4 ص: 29

[2] النبوات ج: 1 ص: 82

الفاتحة6-7

{اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7}

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا }الأعراف43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الأنعام87 وكما فى قوله {شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ}النحل121 { اللّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ }الشورى13 وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ }التوبة33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ {69} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{71} الصافات69 -71 وقوله{وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ{67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{68}الأحزاب67 -68 وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى }طه123 ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى }النجم2 وفى قوله {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة7 وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ }القمر47 [1]

النعمة المطلقة التامة

أجل نعمة أنعم الله بها على عباده أن هداهم للإيمان والإيمان قول وعمل يزيد بالطاعة والحسنات وكلما ازداد العبد عملا للخير إزداد إيمانه هذا هو الإنعام الحقيقى المذكور فى قوله { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ } الفاتحة7[2]

ما أمر الله العبد أمر إيجاب أو استحباب ففعله هو عباده لله وطاعة وقربة الى الله وصلاح لفاعله وحسنة فيه وإذا فعل ذلك كان أعظم لإحسان الله اليه وإنعامه عليه بل أجل نعمة أنعم الله بها على عباده أن هداهم للإيمان والإيمان قول وعمل يزيد بالطاعة والحسنات وكلما ازداد العبد عملا

---

[1]- مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166-167

2- مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 133

للخير إزداد إيمانه هذا هو الإنعام الحقيقى المذكور فى قوله {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ }الفاتحة7 وفى قوله {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً }النساء69 بل نعم الدنيا بدون الدين هل هى من نعمة أم لا فيه قولان مشهوران للعلماء من أصحابنا وغيرهم والتحقيق أنها نعمة من وجه وإن لم تكن نعمة تامة من وجه وأما الإنعام بالدين الذى ينبغى طلبه فهو ما أمر الله به من واجب ومستحب فهو الخير الذى ينبغى طلبه بإتفاق المسلمين وهو النعمة الحقيقية عند أهل السنة إذ عندهم أن الله هو الذى أنعم بفعل الخير[1]

فكل ما بالخلق من النعم فمنه وحده لا شريك له ولهذا هو سبحانه يجمع بين الشكر والتوحيد ففي الصلاة أول الفاتحة الحمد لله رب العالمين وأوسطها إياك نعبد وإياك نستعين والخطب وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم وعن ابن عباس إذا قلت لا إله إلا الله فقل الحمد لله فإن الله يقول { فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }غافر65 وفي حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يصبح الحمد لله ربي لا أشرك به شيئا أشهد أن لا إله إلا الله ظل تغفر له ذنوبه حتى يمسي ومن قالها حين يمسي غفرت له ذنوبه حتى يصبح رواه أبان المحاربي عن النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكره ابن عبدالبر وغيره فالحمد أول الأمر كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم والتوحيد نهايته ولهذا كان النصف من الفاتحة الذي هو لله أوله حمد وآخره توحيد إياك نعبد والحمد رأس الشكر فالحامد يشكره أولا على نعمه ثم يعبده وحده فإن العبد أول ما يعرف ما يحصل له من النعمة مثل خلقه حيا وخلق طرق العلم السمع والبصر والعقل وقد تنازع الناس في أول ما أنعم الله على العبد فقيل هو خلقه حيا أو خلق الحياة كما قال ذلك من قاله من المعتزلة وقيل بل إدراك اللذات ونيل الشهوات كما يقوله الأشعري ومن وافقه من الفقهاء من أصحاب أحمد وغيره كالقاضي أبي يعلى في أحد قوليه ومن أصحاب أحمد وغيرهم من قال بل أولها هو الإيمان ولم يجعل ما قبل الإيمان نعمة بناء على أن تلك لا تصير نعما إلا بالإيمان وأن الكافر ليس عليه نعمة وهذا أحد قولي الأشعري وأحد القولين لمتأخري أصحاب أحمد وغيرهم كأبي الفرج والصحيح أن نعمة الله على كل أحد على الكفار وغيرهم لكن النعمة المطلقة التامة هي على الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين الذين أمرنا أن نقول في صلاتنا {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ {7} الفاتحة6-7 فإن جعلت غير صفة لا استثناء فيها لم يدخل المغضوب عليهم ولا الضالون في المنعم عليهم وإن جعلت استثناء فقد دخلوا في المنعم عليهم لكن رجحوا الأول فقالوا واللفظ للبغوي غير ههنا بمعنى لا ولا بمعنى غير ولذلك جاز العطف عليها كما يقال فلان يغر محسن ولا مجمل فإذا كان غير بمعنى سوى فلا يجوز العطف عليها بلا لا يجوز في الكلام عندي سوى عبدالله ولا زيد وقد روى عن عمر أنه قرأ صراط من أنعمت عليهم غير لمغضوب عليهم وغير الضالين وهذا قد ذكره غير واحد من أهل العربية ومثلوه بقول القائل إنى لأقر بالصادق غير الكاذب قالوا وغير هنا صفة ليست للإستثناء وأصل غير أن تكون صفة وهي في الآية صفة ولهذا خفضت كأنه قيل صراط المنعم عليهم المغايرين لهؤلاء وهؤلاء هذه هي النعمة المطلقة التامة والقرآن مملوء من ذكر نعمه على الكفار وقد قال تعالى {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ }البقرة28 فالحياة نعمة وإدراك اللذات نعمة وأما الإيمان فهو أعظم النعم وبه تتم النعم فالإنسان بجبلته يطلب ما يوافقه ويتنعم به من الغذاء وغيره على هذا فطر فيعرف النعمة فيعرف المنعم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 133-134

فيشكره فلهذا كان الحمد هو الإبتداء فإن شعوره بنفسه وبما يحتاج إليه ويتنعم به قبل شعوره بكل شيء وهو من حين خرج من بطن أمه شعر باللبن الذي يحتاج إليه ويتنعم به وبما يخرج منه وهو الثدي فلهذا تعرف الله إليه بالنعم ليشكره وشكره ابتداء معرفته بالله فإذا عرف الله أحبه فعبده وتنعم بعبادته وحده لا شريك له وعرف ما في التأله له من اللذة العظيمة التي لا يعد لها لذة فلهذا كان التوحيد نهايته أوله الحمد وآخره إياك نعبد وكذلك في الجنة كما في صحيح مسلم عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون ما هو ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه وهي الزياده فالنظر إليه أكمل اللذات وآخرها كما قال فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولهذا قيل أطيب ما في الدنيا معرفته وأطيب ما في الآخرة مشاهدته وعبادته وحده بمحبته وقصد رؤيته هو لأهل السنة الذين يقرون بإلاهيته وحكمته وأنه يستحق المحبة وأن يكون هو أحب إلى العبد من كل شيء وأما الجهمية والمعتزلة فينكرون محبته وحقيقة إلاهيته وعلى قولهم تمتنع عبادته لكن المعتزلة تقر بالنعمة ووجوب الشكر وعلى هذا بنوا دينهم وغاية الواجبات هي الشكر ولهذا قالوا الشكر يجب عقلا وأما العبادة والمحبة فلم يعرفوها ولم يصلوا إليها بل أنكروها وأما الجهمية المجبرة لا هذا ولا هذا لكن يعترفون بقدرته وأنه يفعل ما يشاء ولهذا كانوا في الواجبات وترك المحرمات أبعد من المعتزلة فإنهم مرجئة مجبرة فلا يجزمون بالوعيد وهذا نصف الحرف الباعث على العمل ويقلون بالجبر وهذا نصف الإعتراف بحق الله على العبد ووجوب شكره فتضعف دواعيهم من جهة الخوف ومن جهة الشكر لا يشكرون نعمه الماضية ولا يخافون عقوبته المستقبلة ولكن لما آمن من آمن منهم بالرسل صار عندهم خوف ما ورجاء وصاروا يوجبون الشكر شرعا وعندهم داعي الرجاء فالرجاء عندهم أغلب من الخوف وهو أحد المعنيين في تسميتهم مرجئة قيل إنه من الرجاء أي يجعلون الناس راجين فهم مرجية لا مخيفة لكن الصحيح أنهم مرجئة بالهمز من الإرجاء لكن يشارك الرجاء في الإشتقاق الأكبر ولهذا قيل من عبدالله بالرجاء وحده فهو مرجيء ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ومن عبده بالحب فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والحب فهو مؤمن موحد وذلك أن الحب الذي ليس معه رجاء ولا خوف يبعث النفس على اتباع هواها وصاحبه إنما يحب في الحقيقة نفسه وقد اتخذ إلاهه هواه فلهذا كان زنديقا ومن هنا دخلت الملاحدة الباطنية كالقائلين بوحدة الوجود فإن هؤلاء سلوكهم عن هوى ومحبة فقط ليس معه رجاء ولا خوف ولهذا يتنوعون[1]

النعيم التام هو في الدين الحق

أن الأعمال التي يعملها جميع بني آدم إما أن يتخذونها دينا أو لا يتخذونها دينا والذين يتخذونها دينا إما أن يكون الدين بها دين حق أو دين باطل فنقول النعيم التام هو في الدين الحق فأهل الدين الحق هم الذين لهم النعيم الكامل كما أخبر الله بذلك في كتابه في غير موضع كقوله {الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7}الفاتحة6-7 وقوله عن المتقين المهتدين {أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }البقرة5 وقوله تعالى { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً

---

[1] رسالة في تحقيق الشكر ج: 1 ص: 108-112

وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{126} طه123-126 وقوله تعالى { فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }البقرة38 وقوله تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14} الانفطار13- 14 ووعد أهل الإيمان والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة ووعد الكفار بالعذاب التام في الدار الآخرة أعظم من أن يذكر هنا وهذا مما لم ينازع فيه أحد من أهل الإسلام [1]

لا تحصل النعمة إلا برحمة الله

فالإنسان وكل مخلوق فقير الى الله بالذات وفقره من لوازم ذاته يمتنع أن يكون إلا فقيرا إلى خالقه وليس أحد غنيا بنفسه إلا الله وحده فهو الصمد الغنى عما سواه وكلما سواه فقير اليه فالعبد فقير الى الله من جهة ربوبيته ومن جهة الهيته كما قد بسط هذا فى مواضع والإنسان يذنب دائما فهو فقير مذنب وربه تعالى يرحمه ويغفر له وهو الغفور الرحيم فلولا رحمته وإحسانه لما وجد خير أصلا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ولولا مغفرته لما وقى العبد شر ذنوبه وهو محتاج دائما الى حصول النعمة ودفع الضر والشر ولا تحصل النعمة إلا برحمته ولا يندفع الشر إلا بمغفرته فإنه لا سبب للشر إلا ذنوب العباد كما قال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ }النساء79 والمراد بالسيئات ما يسوء العبد من المصائب وبالحسنات ما يسره من النعم كما قال { وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ }الأعراف168فالنعم والرحمة والخير كله من الله فضلا وجودا من غير أن يكون لأحد من جهة نفسه عليه حق وإن كان تعالى عليه حق لعباده فذلك الحق هو أحقه على نفسه وليس ذلك من جهة المخلوق بل من جهة الله كما قد بسط هذا فى مواضع والمصائب بسبب ذنوب العباد وكسبهم كما قال {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ }الشورى30 والنعم وإن كانت بسبب طاعات يفعلها العبد فيثيبه عليها فهو سبحانه المنعم بالعبد وبطاعته وثوابه عليها فإنه سبحانه هو الذى خلق العبد وجعله مسلما طائعا كما قال الخليل{الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ }الشعراء78 وقال {وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ}البقرة128 وقال{رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ }إبراهيم40وقال{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ }السجدة24 فسأل ربه أن يجعله مسلما وأن يجعله مقيم الصلاة وقال {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ }الحجرات7 قال فى آخرها{فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً }الحجرات8 وفى سنن أبى داود صحيح ابن حبان إهدنا سبل السلام ونجنا من الظلمات الى النور واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتممها علينا وفى الفاتحة {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 وفى الدعاء الذى رواه الطبرانى عن ابن عباس قال مما دعا به رسول الله عشية عرفة اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى وتعلم سرى وعلانيتى ولا يخفى عليك شىء من أمرى أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المقر بذنبه أسألك مسئلة المسكين وأبتهل اليك

---

[1] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 137-138

إبتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير من خضعت لك رقبته وذل لك جسده ورغم لك أنفه اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا وكن بى رؤوفا رحيما يا خير المسئولين ويا خير المعطين[1]

المقصود بالهداية

الهدى هو الالهام كما في قوله اهدنا الصراد المستقيم2

أن التعليم والتذكير والإنذار والهدى ونحو ذلك له فاعل وله قابل فالمعلم المذكر يعلم غيره ثم ذلك الغير قد يتعلم ويتذكر وقد لا يتعلم ولا يتذكر فإن تعلم وتذكر فقد تم التعليم والتذكير وإن لم يتعلم ولم يتذكر فقد وجد أحد طرفيه وهو الفاعل دون المحل القابل فيقال في مثل هذا علمته فما تعلم وذكرته فما تذكر وأمرته فما أطاع وقد يقال ما علمته وما ذكرته لأنه لم يحصل تاما ولم يحصل مقصوده فينفى لإنتفاء كماله وتمامه وإنتفاء فائدته بالنسبة إلى المخاطب السامع وإن كانت الفائدة حاصلة للمتكلم القائل المخاطب فحيث خص بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنون فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به وحيث عمم فالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا وهذا هو الهدى المذكور في قوله{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت17 فالهدى هنا هو البيان والدلالة والإرشاد العام المشترك وهو كالإنذار العام والتذكير العام وهنا قد هدى المتقين وغيرهم كما قال {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }الرعد7 وأما قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 فالمطلوب الهدى الخاص التام الذي يحصل معه الإهتداء كقوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 وقوله {فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ }الأعراف30 وقوله { فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ }النحل37 وقوله {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ }المائدة16 وهذا كثير فى القرآن[3]

فإن الهداية وإن كانت الهداية النافعة هى المتعلقة بالدين فكل اعمال الناس تابعة لهدى الله إياهم كما قال سبحانه { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}الاعلى 1-3 وقال موسى { رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }طه50 وقال تعالى {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 وقال {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً }الإنسان3 ولهذا قيل الهدى أربعة أقسام احدها الهداية إلى مصالح الدنيا فهذا مشترك بين الحيوان الناطق والأعجم وبين المؤمن والكافر و الثانى الهدى بمعنى دعاء الخلق إلى ما ينفعهم وأمرهم بذلك وهو نصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب فهذا أيضا يشترك فيه جميع المكلفين سواء آمنوا أو كفروا كما قال تعالى {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت17 وقال تعالى { إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }الرعد7 وقال تعالى { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الشورى52 فهذا مع قوله {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ }القصص56 يبين أن الهدى الذى أثبته هو البيان والدعاء والأمر والنهى والتعليم وما يتبع ذلك ليس هو الهدى الذى نفاه وهو القسم الثالث الذى لا يقدر عليه إلا الله والقسم الثالث الهدى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 43

[2] الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 22

[3] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 156-157

الذى هو جعل الهدى فى القلوب وهو الذى يسميه بعضهم بالإلهام والإرشاد وبعضهم يقول هو خلق القدرة على الإيمان كالتوفيق عندهم ونحو ذلك وهو بناء على أن الإستطاعة لا تكون إلا مع الفعل فمن قال ذلك من أهل الإثبات جعل التوفيق والهدى ونحو ذلك خلق القدرة على الطاعة وأما من قال أنهما إستطاعتان إحداهما قبل الفعل وهى الإستطاعة المشروطة فى التكليف كما قال تعالى { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً}آل عمران97 وقال النبى لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب وهذه الإستطاعة يقترن بها الفعل تارة والترك أخرى وهى الإستطاعة التى لم تعرف القدرية غيرها كما أن أولئك المخالفين لهم من أهل الإثبات لم يعرفوا إلا المقارنة وأما الذى عليه المحققون من أئمة الفقه والحديث والكلام وغيرهم فاثبات النوعين جميعا كما قد بسطناه فى غير هذا الموضع فإن الأدلة الشرعية والعقلية تثبت النوعين جميعا والثانية المقارنة للفعل وهى الموجبة له وهى المنفية عمن لم يفعل فى مثل قوله { مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ }هود20 وفى قوله { لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً }الكهف101 وهذا الهدى الذى يكثر ذكره فى القرآن فى مثل قوله{اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 وقوله {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً }الأنعام125 وفى قوله { مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً }الكهف17 وأمثال ذلك وهذا هو الذى تنكر القدرية أن يكون الله هو الفاعل له ويزعمون أن العبد هو الذى يهدى نفسه وهذا الحديث وأمثاله حجة عليهم حيث قال يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فإستهدونى أهدكم فأمر العباد بأن يسألوه الهداية كما امرهم بذلك فى أم الكتاب فى قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 وعند القدرية إن الله لا يقدر من الهدى إلا على ما فعله من إرسال الرسل ونصب الأدلة وإزاحة العلة ولا مزية عندهم للمؤمن على الكافر فى هداية الله تعالى ولا نعمة له على المؤمن أعظم من نعمته على الكافر فى باب الهدى وقد بين الإختصاص فى هذه بعد عموم الدعوة فى قوله {وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }يونس25 فقد جمع الحديث تنزيهه عن الظلم الذى يجوزه عليه بعض المثبتة وبيان أنه هو الذى يهدى عباده ردا على القدرية فأخبر هناك بعدله الذى يذكره بعض المثبتة وأخبر هنا بإحسانه وقدرته الذى تنكره القدرية وإن كان كل منهما قصده تعظيما لا يعرف ما إشتمل عليه قوله والقسم الرابع الهدى فى الآخرة كما قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ{23} وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ{24}الحج23-24 وقال {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ }يونس9 فقوله { يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ }يونس9 كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ }الطور21 على أحد القولين فى الآية وهذا الهدى ثواب الإهتداء فى الدنيا كما أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا وكما أن قصد الشر فى الدنيا جزاؤه الهدى إلى طريق النار كما قال تعالى { احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ{22} مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ{23}الصافات 22-23 وقال وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً }الإسراء72 وقال { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{126} طه 123-126 وقال{وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً }الإسراء97 الآية فأخبر أن الضالين فى الدنيا يحشرون يوم القيامة عميا وبكما وصما فإن الجزاء أبدا من جنس العمل كما قال الراحموان

يرحمهم الرحمن إرحموا من فى الأرض يرحكم من فى السماء وقال من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه وقال من سئل عن علم يعلمه فكتمه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار[1]

والعبد مضطر دائما إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم فهو مضطرإلى مقصود هذا الدعاء فإنه لانجاة من العذاب ولا وصول الى السعادة إلا بهذه الهداية فمن فاته فهو إما من المغضوب عليهم وإما من الضالين وهذا الهدى لايحصل إلا بهدى الله و هذه الآية مما يبين فساد مذهب القدريةوأما سؤال من يقول فقد هداهم فلا حاجة بهم إلى السؤال و جواب من أجابه بأن المطلوب دوامها كلام من لم يعرف حقيقة الأسباب و ما أمر الله به فإن الصراط المستقيم أن يفعل العبد فى كل وقت ما أمر به فى ذلك الوقت من علم وعمل ولا يفعل مانهي عنه وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أمر به فى ذلك الوقت وما نهى عنه وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور وكراهة جازمة لترك المحظور فهذا العلم المفصل والارادة المفصلة لا يتصور أن تحصل للعبد فى وقت واحد بل كل و قت يحتاج إلى أن يجعل الله فى قلبه من العلوم والارادات ما يهتدى به في ذلك الصراط المستقيم نعم حصل له هدى مجمل بأن القرآن حق والرسول حق ودين الإسلام حق وذلك حق ولكن هذا المجمل لا يغنيه أن لم يحصل له هدى مفصل في كل ما يأتيه و يذره من الجزئيات التى يحار فيها أكثر عقول الخلق و يغلب الهوى و الشهوات أكثر عقولهم لغلبة الشهوات والشبهات عليهم والانسان خلق ظلوما جهولا فالأصل فيه عدم العلم و ميله الى ما يهواه من الشر فيحتاج دائما إلى علم مفصل يزول به جهله وعدل فى محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه واعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه الى علم ينافى جهله و عدل ينافى ظلمه فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل و إلا كان فيه من الجهل و الظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم وقد قال تعالى لنبيه صلى الله عليه و سلم بعد صلح الحديبية و بيعة الرضوان {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً }الفتح1 إلى قوله تعالى{ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً }الفتح2 فإذا كان هذه حاله فى آخر حياته أو قريبا منها فكيف حال غيره والصراط المستقيم قد فسر بالقرآن و بالاسلام و طريق العبودية وكل هذا حق فهو موصوف بهذا وبغيره فالقرآن مشتمل على مهمات و أمور دقيقة ونواهي واخبار وقصص وغير ذلك ان لم يهد الله العبد إليها فهو جاهل بها ضال عنها وكذلك الاسلام وما اشتمل عليه من المكارم و الطاعات و الخصال المحمودة و كذلك العبادة وما اشتملت عليه فحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته و نجاته و فلاه بخلاف حاجته إلى الرزق و النصر فإن الله يرزقه فإذا انقطع رزقه مات و الموت لابد منه فإذا كان من أهل الهدى به كان سعيدا قبل الموت و بعده و كان الموت موصلا إلى السعادة الأبدية و كذلك النصر إذا قدر أنه غلب حتى قتل فإنه يموت شهيدا و كان القتل من تمام النعمة فتبين أن الحاجة إلى الهدى أعظم من الحاجة الى النصر و الرزق بل لا نسبة بينهما لأنه إذا هدي كان من المتقين { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ {3}الطلاق 2-3و كان ممن ينصر الله و رسوله و من نصر الله نصره الله و كان من جند الله و هم الغالبون و لهذا كان هذا الدعاء هو المفروض و أيضا فإنه يتضمن الرزق و النصر لأنه إذا هدى ثم أمر و هدى غيره بقوله و فعله و رؤيته فالهدى التام أعظم ما يحصل به الرزق و النصر فتبين أن هذا الدعاء جامع لكل مطلوب و هذا مما يبين لك أن غير الفاتحة لايقوم مقامها و أن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 171-176

فضلها على غيرها من الكلام أعظم من فضل الركوع و السجود على سائر أفعال الخضوع فاذا تعينت الأفعال فهذا القول أولى و الله أعلم وصلى الله على نبيه محمد وسلم تسليما كثيرا[1]

وجلب المنفعة ودفع المضرة أما أن يكون في الدين أو في الدنيا فصارت أربعة أقسام الهداية والمغفرة وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدين والطعام والكسوة وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدنيا وإن شئت قلت الهداية والمغفرة يتعلقان بالقلب الذي هو ملك البدن وهو الأصل في الأعمال الإرادية والطعام والكسوة يتعلقان بالبدن الطعام لجلب منفعته واللباس لدفع مضرته وفتح الأمر بالهداية فإنها وإن كانت الهداية النافعة هي المتعلقة بالدين فكل أعمال الناس تابعة لهدي الله إياهم كما قال سبحانه { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}الاعلى1-3 وقال موسى{رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }طه50 وقال تعالى{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 وقال {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً }الإنسان3 ولهذا قيل الهدى أربعة أقسام أحدها الهداية إلى مصالح الدنيا فهذا مشترك بين الحيوان الناطق والأعجم وبين المؤمن والكافر والثاني الهدى بمعنى دعاء الخلق إلى ماينفعهم وأمرهم بذلك وهم نصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب فهذا أيضا يشترك فيه جميع المكلفين سواء آمنوا أو كفروا كما قال تعالى{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت17 وقال تعالى { إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }الرعد7 وقال تعالى { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الشورى52 فهذا مع قوله {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ }القصص56 يبين أن الهدى الذي أثبته هو البيان والدعاء والأمر والنهي والتعليم وما يتبع ذلك ليس هو الهدى الذي نفاه وهو القسم الثالث الذي لايقدر عليه إلا الله والقسم الثالث الهدى الذي هو جعل الهدى في القلوب وهو الذي يسميه بعضهم بالإلهام والإرشاد وبعضهم يقول هو خلق القدرة على الإيمان كالتوفيق عندهم ونحو ذلك وهو بناء على أن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل فمن قال ذلك من أهل الإثبات جعل التوفيق والهدى ونحو ذلك خلق القدرة على الطاعة أما من قال إنهما استطاعتان إحداهما قبل الفعل وهي الاستطاعة المشروطة في التكليف كما قال تعالى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً }آل عمران97 وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب وهذه الإستطاعة يقترن بها الفعل تارة والترك أخرى وهي الإستطاعة التي لم تعرف القدرية غيرها كما أن أولئك المخالفين لهم من أهل الإثبات لم يعرفوا إلا المقارنة وأما الذي عليه المحققون من أئمة الفقه والحديث والكلام وغيرهم فإثبات النوعين جميعا كما قد بسطناه في غير هذا الموضع فإن الأدلة الشرعية والعقلية تثبت النوعين جميعا والثانية المقارنة للفعل وهي الموجبة له وهي المنفية عمن لم يفعل في مثل قوله { مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ }هود20 وفي قوله {لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً }الكهف101 وهذا الهدى الذي يكثر ذكره في القرآن في مثل قوله {اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 وقوله {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً }الأنعام125 وفي قوله { مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً }الكهف17 وأمثال ذلك وهذا هو الذي تنكر القدرية أن يكون الله هو الفاعل له ويزعمون أن العبد هو الذي يهدي نفسه وهذا الحديث وأمثاله حجة عليهم حيث قال يا عبادي

---

[1]مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 37 و رسالة في تحقيق التوكل ج: 1 ص: 98

كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم فأمر العباد بأن يسألوه الهداية كما أمرهم بذلك في أم الكتاب في قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 وعند القدرية أن الله لا يقدر من الهدى إلى على ما فعله من إرسال الرسل ونصب الأدلة وإراحة العلة ولا مزية عندهم للمؤمن على الكافر في هداية الله تعالى ولا نعمة له على المؤمن أعظم من نعمته على الكافر في باب الهدى وقد بين الاختصاص في هذه بعد عموم الدعوة في قوله {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }يونس25 والقسم الرابع الهدى في الآخرة كما قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ{23} وَهُدُواْ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُواْ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ{24} الحج 24-23 وقال {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ }يونس9 فقوله { يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ }يونس9 كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ }الطور21 على أحد القولين في الآية وهذا الهدى ثواب الاهتداء في الدنيا كما أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا وكما أن قصد الشر في الدنيا جزاؤه الهدى إلى طريق النار كما قال تعالى{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ{22} مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ{23} الصافات 22-23 وقال {وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً }الإسراء72[1]

الدعاء ثلاثة انواع

فإن دعاء العبد لربه ومسألته اياه ثلاثة انواع نوع امر به العبد اما امر ايجاب واما امر استحباب مثل قوله اهدنا الصراط المستقيم سورة الفاتحة 6 ومثل دعائه في اخر الصلاة كالدعاء الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر به اصحابه فقال اذا قعد احدكم في التشهد فليستعذ بالله من اربع من عذاب جهنم وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال فهذا دعاء امر به النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة ان يدعوا به في اخر صلاتهم وقد اتفقت الامة على انه مشروع يحبه الله ورسوله ويرضاه وتنازعوا في وجوبه فأوجبه طاووس وطائفة وهو قول في مذهب احمد والأكثرون قالوا هو مستحب والادعيه التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بها او يعلم اصحابه ان يدعوا بها لا تخرج عن ان تكون واجبة او مستحبه وكل واحد من الواجب والمستحب فالله يحبه ويرضاه ومن فعله رضي الله عنه وارضاه فهل يكون من الرضا ترك ما يحبه ويرضاه ونوع من الدعاء ينهى عنه كالاعتداء في الدعاء مثل ان يسأل الرجل ما لا يصلح له مما هو من خصائص الانبياء وليس هو بنبي وربما هو من خصائص الرب سبحانه وتعالى مثل ان يسأل لنفسه الوسيلة التي لا تصلح الا لعبد من عباده او يسأل الله ان يجعله افضل من اولياء الله حتى يكون افضل من ابي بكر وعمر او يسأل الله ان يجعله بكل شيء عليم او على كل شيء قدير او يرفع عنه كل حجاب يمنعه من مطالعة الغيوب وامثال ذلك او مثل من يدعوه ظانا انه محتاج الى عباده وانهم يبلغون ضره ونفعه فيطلب منه ذلك الفعل ويذكر انه اذا لم يفعله حصل له ضير من الخلق فهذا ونحوه جهل بالله واعتداء وان وقع في نحو ذلك طائفة من الشيوخ ومثل ان يقول اللهم

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 422-424

اغفر لي ان شئت فيظن ان الله قد يفعل الشيء مختارا وقد يعقله مكرها كالملوك فيقول اغفر لي ان شئت وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال لا يقل حدكم اللهم اغفر لي ان شئت اللهم ارحمني ان شئت ولكن ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له ومثل ان يقصد السجع في الدعاء ويتشهق ويتشدق وامثال ذلك فهذه الادعية ونحوها منهى عنها ومن الدعاء ما هو مباح كطلب الفضول التي لا معصية فيها [1]

أفضل الأدعية

والذي يجب على العبد أن يعلم أن علم الله و قدرته و حكمته و رحمته فى غاية الكمال الذي لا يتصور زيادة عليها بل كلما أمكن من الكمال الذي لا نقص فيه فهو واجب للرب تعالى و قد يعلم بعض العباد بعض حكمته و قد يخفى عليهم منها ما يخفى و الناس يتفاضلون فى العلم بحكمته و رحمته و عدله و كلما إزداد العبد علما بحقائق الأمور إزداد علما بحكمة الله و عدله و رحمته و قدرته و علم أن الله منعم عليه بالحسنات عملها و ثوابها وأن ما يصيبه من عقوبات ذنوبه فبعدل الله تعالى وأن نفس صدور الذنوب منه وإن كان من جملة مقدورات الرب فهو لنقص نفسه وعجزها وجهلها الذي هو من لوازمها وأن ما فى نفسه من الحسنات فهو من فعل الله وإحسانه وجوده وأن الرب مع أنه قد خلق النفس وسواها وألهما فجورها و تقواها فإلهام الفجور والتقوى وقع بحكمة بالغة لو إجتمع الأولون والآخرون من عقلاء الآدميين على أن يروا حكمة أبلغ منها لم يروا حكمة أبلغ منها لكن تفصيل حكمة الرب مما يعجز كثير من الناس عن معرفتها و منها ما يعجز عن معرفته جميع الخلق حتى الملائكة و لهذا قالت الملائكة لما قال الله تعالى لهم {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء }البقرة30 قال { إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }البقرة30 فتكفيهم المعرفة المجملة والإيمان العام والله سبحانه قد أمرهم أن يطلبوا منه جميع ما يحتاجون إليه من هدى و رشاد و صلاح فى المعاش و المعاد و مغفرة و رحمة و كان النبى صلى الله عليه و سلم يقول فى الحديث الصحيح اللهم إني أسالك الهدى و التقى و العفة و الغنى و يقول اللهم آت نفسي تقواها و زكها أنت خير من زكاها أنت و ليها و مولاها و يقول اللهم اصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري و أصلح لي دنياي التى فيها معاشي و اصلح لي آخرتى التى فيها معادي و اجعل الحياة زيادة لي فى كل خير و اجعل الموت راحة لي من كل شر و كل هذا فى الأحاديث التى في الصحيح وفى صحيح مسلم أنه كان يقول إذا قام من الليل اللهم رب جبريل و ميكائيل و إسرافيل فاطر السموات و الأرض عالم الغيب و الشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون إهدنى لما إختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم و قد أمرنا الله تعالى أن نقول فى صلاتنا {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة 6-7 و هذا أفضل الأدعية و أوجبها على العباد و من تحقيق بهذا الدعاء جعله الله من أهل الهدى و الرشاد فإنه سميع الدعاء لا يخلف الميعاد و الله أعلم [2]

---

[1]- الاستقامة ج: 2 ص: 129-132

[2]مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 512-515

الله هو المنعم بالهدى

ففي القرآن من ذكر تفصيل أفعال العباد التي بقلوبهم وجوارحهم وأنه هو تبارك وتعالى يحدث من ذلك ما يطول وصفه كقوله تعالى {فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ }الأعراف30 وقوله تعالى {فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }البقرة213 وقوله { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ }الحجرات7ومعلوم أنه لم يرد بذلك الهداية المشتركة بين المؤمن والكافر مثل إرسال الرسل والتمكين من الفعل وإزاحة العلل بل أراد ما يختص به المؤمن كما دل عليه القرآن في مثل قوله تعالى { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الأنعام87 وقوله { وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ{117} وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ{118} الصافات 117- 118 ومنه قولنا في الصلاة {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة 6- 7 فإن الهداية المشتركة حاصلة لا تحتاج أن تسأل وإنما تسأل الهداية التي خص بها المهتدين ومن تأول ذلك بمعنى زيادة الهدى والتثبيت وقال كان ذلك جزاء كان متناقضا فإنه يقال هذا المطلوب إن لم يكن حاصلا باختيار العبد لم يثب عليه فإنه إنما يثاب على ما فعله باختياره وإن كان باختياره فقد ثبت أن الله يحدث الفعل الذي يختاره العبد وهذا مذهب أهل السنة وكذلك ما أخبر الله في القرآن من إضلال وهدى ونحو ذلك فإنهم قد يتأولون ذلك بأنه جزاء على ما تقدم وعامة تأويلاتهم مما يعلم بالاضطرار أن الله ورسوله لم يردها بكلامه مع أن هذا الاجزاء مما يثاب الفاعل عليه وإن جوزوا أن الله يثيب العبد على ما ينعم به على العبد من فعله الاختياري جاز أن ينعم عليه ابتداء باختياره الطاعة وإن لم يجز عندهم الثواب والعقاب على ما يجعل العبد فاعلا له بطل أن يريد هدى أو ضلالة يثاب عليها أو يعاقب عليها وامتنع أن يكون ما أخبر أنه فعله من جعل الأغلال في أعناقهم وجعله من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا ونحو ذلك هو مما يعاقبون عليه وقد قال تعالى {إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ }النحل37 فأخبر أنه من أضله الله لا يهتدي وفي الجملة ففي القرآن من الآيات المبينة أن الله خالق أفعال العباد وأنه هو الذي يقلب قلوب العباد فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وأنه هو المنعم بالهدى على من أنعم عليه ما يتعذر استقصاؤه في هذه المواضع وكذلك فيه ما يبين عموم خلقه لكل شيء كقوله { اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ }الرعد16 وغير ذلك وفيه ما يبين أنه فعال لما يريد وفيه ما يبين أنه لو شاء لهدى الناس جميعا وأمثال ذلك مما يطول وصفه [1]

قال تعالى {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }النساء26 أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا ويهدينا سنن الذين من قبلنا قال فيهم {أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ }الأنعام90 وهم الذين امرنا ان نسأله الهداية لسبيلهم فى قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ{7} الفاتحة6-7 فهو يحب لنا ويأمرنا ان نتبع صراط هؤلاء وهو سبيل من أناب إليه[2]

---

[1]- منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 263-264

[2]مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 573 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 19

ومن المعلوم أن الله لا يحب الجهل ولا الشك ولا الحيرة ولا الضلال وانما يحب الدين والعلم واليقين وقد ذم الحيرة بقوله تعالى {قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {71} وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ{72} الأنعام71-72 وقد أمرنا الله تعالى ان نقول { اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة 6-7 وفى صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضى الله عنها ان النبى كان اذا قام من الليل يصلى يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدى من تشاء الى صراط مستقيم فهو يسأل ربه ان يهديه لما اختلف فيه من الحق وقد قال الله تعالى له { وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً }طه114 [1]

لا حجة لأحد على الله

ما دل عليه الكتاب و السنة و كان عليه السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار و الذين إتبعوهم بإحسان و هو أن الله خالق كل شيء و ربه و مليكه و قد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها و صفاتها القائمة بها من أفعال العباد و غيرأفعال العباد و أنه سبحانه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته و قدرته لا يمتنع عليه شيء شاءه بل هو قادر على كل شيء و لا يشاء شيئا إلا و هو قادر عليه و أنه سبحانه يعلم ما كان و ما يكون و ما لم يكن لو كان كيف يكون و قد دخل في ذلك أفعال العباد و غيرها و قد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم قدر آجالهم و أرزاقهم و أعمالهم و كتب ذلك و كتب ما يصيرون إليه من سعادة و شقاوة فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء و قدرته على كل شيء و مشيئته لكل ما كان و علمه بالأشياء قبل أن تكون و تقديره لها و كتابته إياها قبل أن تكون و غلاة القدرية يفكرون علمه المتقدم و كتابته السابقة و يزعمون أنه أمر و نهى و هو لايعلم من يطيعه ممن يعصيه بل الأمر أنف أى مستأنف وهذا القول أول ماحدث فى الإسلام بعد إنقراض عصر الخلفاء الراشدين و بعد إمارة معاوية بن أبى سفيان فى زمن الفتنة التى كانت بين إبن الزبير و بين بنى أمية فى أواخر عصر عبد الله بن عمر و عبد الله بن عباس و غيرهما من الصحابة و كان أول من ظهر عنه ذلك بالبصرة معبد الجهني فلما بلغ الصحابة قول هؤلاء تبرءوا منهم و أنكروا مقالتهم كما قال عبد الله بن عمر لما أخبر عنهم إذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى بريء منهم و أنهم برءاء مني و كذلك كلام إبن عباس و جابر بن عبد الله و واثلة بن الأسقع و غيرهم من الصحابة و التابعين لهم بإحسان و سائر أئمة المسلمين فيهم كثير حتى قال فيهم الأئمة كمالك و الشافعي و أحمد بن حنبل و غيرهم أن المنكرين لعلم الله المتقدم يكفرون ثم كثر خوض الناس فى القدر فصار جمهورهم يقر بالعلم المتقدم و الكتاب السابق لكن ينكرون عموم مشيئة الله و عموم خلقه و قدرته يظنون أنه لا معنى لمشيئته إلا أمره فما شاءه فقد أمر به و ما لم يشأه لم يأمر به فلزمهم أن يقولوا أنه قد يشاء ما لا يكون و يكون مالا يشاء و أنكروا أن يكون الله تعالى خالقا لأفعال

---

[1]- مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 178-179

العباد أو قادرا عليها أو أن يخص بعض عبادة من النعم بما يقتضي إيمانهم به و طاعتهم له وزعموا أن نعمته التى يمكن بها الإيمان و العمل الصالح على الكفار كأبى لهب و أبى جهل مثل نعمته بذلك على أبى بكر و عمر و عثمان و علي بمنزلة رجل دفع لأولاده مالا فقسمه بينهم بالسوية لكن هؤلاء أحدثوا أعمالهم الصالحة و هؤلاء أحدثوا اعمالهم الفاسدة من غير نعمة خص الله بها المؤمنين و هذا قول باطل و قد قال تعالى {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }الحجرات17 و قال تعالى {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ }الحجرات7 وقد أمرنا الله أن نقول فى صلاتنا {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة 6-7 و قال أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ }الأعراف43 و قال الخليل صلوات الله و سلامه عليه {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ }البقرة128 و قال {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء }إبراهيم40 و قال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا }السجدة24 و قال {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ }القصص41 و نصوص الكتاب و السنة و سلف الأمة المبينة لهذه الأصول كثيرة مع ما فى ذلك من الدلائل العقلية الكثيرة على ذلك وسلف الأمة و أئمتها متفقون أيضا على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به منهيون عما نهاهم الله عنه و متفقون على الإيمان بوعده و وعيده الذي نطق به الكتاب و السنة و متفقون أنه لا حجة لأحد على الله فى واجب تركه ولا محرم فعله بل لله الحجة البالغة على عباده و من إحتج بالقدر على ترك مأمور أو فعل محظور أو دفع ما جاءت به النصوص فى الوعد و الوعيد فهو أعظم ضلالا و إفتراء على الله و مخالفة لدين الله من أولئك القدرية فإن أولئك مشبهون بالمجوس و قد جاءت الآثار فيهم أنهم مجوس هذه الأمة كما روى ذلك عن إبن عمر و غيره من السلف و قد رويت فى ذلك أحاديث مرفوعة الى النبى صلى الله عليه و سلم منها ما رواه أبو داود و الترمذي و لكن طائفة من أئمة الحديث طعنوا فى صحة الأحاديث المرفوعة فى ذلك و هذا مبسوط فى موضعه والمقصود هنا أن القدرية النافية يشبهون المجوس فى كونهم أثبتوا غير الله يحدث أشياء من الشر بدون مشيئته و قدرته و خلقه وأما المحتجون على القدر بإسقاط الأمر و النهى و الوعد و الوعيد فهؤلاء يشبهون المشركين الذين قال الله فيهم {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ }الأنعام148 و قال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ }النحل35 [1]

أنفع الدعاء و أعظمه و أحكمه

ما جاء فى عدة آثار إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة يعلمه فلا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه وإستغفاره وشهوده لفقره وفاقته إليه سبحانه

---

[1]- مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 451-455

وفى قوله { فَمِن نَّفْسِكَ }النساء79 من الفوائد أن العبد لا يطمئن إلى نفسه فإن الشر لايجيء إلا منها و لا يشتغل بملام الناس و ذمهم و لكن يرجع الى الذنوب فيتوب منها ويستعيذ بالله من شر نفسه و سيئات عمله ويسأل الله أن يعينه على طاعته فبذلك يحصل له الخير و يدفع عنه الشر لهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة { اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة 6-7 فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته و ترك معصيته فلم يصبه شر لافى الدنيا و لا فى الآخرة و الذنوب من لوازم النفس و هو محتاج الى الهدى كل لحظة و هو الى الهدى أحوج منه الى الأكل والشرب و يدخل فى ذلك من أنواع الحاجات مالا يمكن إحصاؤه و لهذا أمر به فى كل صلاة لفرط الحاجة اليه و إنما يعرف بعض قدره من إعتبر أحوال نفسه و نفوس الإنس والجن المأمورين بهذا الدعاء ورأى ما فيها من الجهل والظلم الذي يقتضى شقاءها في الدنيا و الآخرة فيعلم أن الله تعالى بفضله و رحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير المانعة من الشر ومما يبين ذلك أن الله تعالى لم يقص علينا فى القرآن قصة أحد إلا لنعتبرها و إنما يكون الإعتبار إذا قسنا الثاني بالأول وكانا مشتركين فى المقتضى والحكم فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان فى نفوس المكذبين للرسل فرعون ومن قبله لم يكن بنا حاجة الى الإعتبار بمن لا نشبهه قط لكن الأمر كما قال تعالى {مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ }فصلت43 وقال {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ }الذاريات52 و قال تعالى { كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ }البقرة118 و قال { يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ }التوبة30 و لهذا قال صلى الله عليه و سلم لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يارسول الله اليهود و النصارى قال فمن و قال لتأخذن مأخذ الأمم قبلكم شبرا بشبر و ذراعا بذراع قالوا يا رسول الله فارس و الروم قال فمن و كلا الحديثين في الصحيحين ولما كان فى غزوة حنين كان للمشركين سدرة يعلقون عليها أسلحتهم فقال بعض الناس يا رسول الله إجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال صلى الله عليه و سلم الله أكبر قلتم و الذي نفسي بيده كما قال أصحاب موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة إنها سنن لتركبن سنن من كان قبلكم وقد بين القرآن أن السيئات من النفس و إن كانت بقدرالله فأعظمها جحود الخالق و الشرك به و طلب النفس أن تكون شريكة له سبحانه أو إلها من دونه و كل هذين و قع فإن فرعون و إبليس كل و احد منهما يطلب أن يعبد و يطاع من دون الله و هذا الذي فى فرعون و إبليس غاية الظلم و الجهل و فى نفوس سائر الإنس و الجن شعبة من هذا و هذا إن لم يعن الله العبد و يهده و إلا و قع فى بعض ما و قع فيه فرعون و إبليس بحسب الإمكان قال بعض العارفين ما من نفس إلا و فيها ما فى نفس فرعون إلا أنه قدر فأظهر و غيره عجز فأضمر[1]

كل عبد هو مفتقر دائما إلى حصول هذه الهداية

وإنما فرض عليه من الدعاء الراتب الذى يتكرر بتكرر الصلوات بل الركعات فرضها ونفلها هو الدعاء الذى تتضمنه أم القرآن وهو قوله تعالى {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 216 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 320-322 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 83

عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة6-7 لأن كل عبد فهو مضطر دائما إلى مقصود هذا الدعاء وهو هداية الصراط المستقيم فإنه لا نجاة من العذاب إلا بهذه الهداية ولا وصول إلى السعادة إلا به فمن فاته هذا الهدي فهو إما من المغضوب عليهم أو من الضالين وهذا الإهتداء لا يحصل إلا بهدى الله { مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً }الكهف17 وهذه الآية مما يبين به فساد مذهب القدرية الذين يزعمون أن العبد لا يفتقر فى حصول هذا الإهتداء بل كل عبد عندهم فمعه ما يحصل به الطاعة والمعصية لا فرق عندهم بين المؤمن والكافر ولم يخص الله المؤمن عندهم بهدى حصل به الإهتداء والكلام عليهم مبسوط فى موضع آخر والمقصود هنا أن كل عبد فهو مفتقر دائما إلى حصول هذه الهداية وأما سؤال من يقول فقد هداهم إلى الإيمان فلا حاجة إلى الهدى وجواب من يجيب بأن المطلوب دوام الهدى فكلام من لم يعرف حال الإنسان وما أمر به فإن الصراط المستقيم حقيقته أن تفعل كل وقت ما أمرت به فى ذلك الوقت من علم وعمل ولا تفعل ما نهيت عنه وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور وكراهة جازمة لترك المحذور وهذا العلم المفصل والإرادة المفصلة لا يتصور أن يحصل للعبد فى وقت واحد بل كل وقت يحتاج أن يجعل الله فى قلبه من العلوم والإرادات ما يهدى به فى ذلك الوقت نعم حصل له هدى مجمل بأن القرآن حق ودين الإسلام حق والرسول حق ونحو ذلك ولكن هذا الهدى المجمل لا يغنيه إن لم يحصل هدى مفصل فى كل ما يأتيه ويذره من الجزئيات التى يحار فى كثير منها أكثر عقول الخلق ويغلب الهوى والشهوات أكثر الخلق لغلبة الشبهات والشهوات على النفوس والإنسان خلق ظلوما جهولا فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر فيحتاج دائما إلى علم مفصل يزول به جهله وعدل فى محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه وإعطائه ومنعه وكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى عدل ينافى ظلمه فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل وإلا كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم وقد قال الله تعالى لنبيه بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً{1} لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{2} وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً{3} الفتح 1-3 فأخبر أنه فعل هذا ليهديه صراط مستقيما فإذا كان هذا حاله فكيف بحال غيره والصراط المستقيم قد فسر بالقرآن والإسلام وطريق العبودية فكل هذا حق فهو موصوف بهذا وبغيره فحاجته إلى هذه الهداية ضرورية فى سعادته ونجاته بخلاف الحاجة إلى الرزق والنصر فإن الله يرزقه فإذا إنقطع رزقه مات والموت لا بد منه فإن كان من أهل الهداية كان سعيدا بعد الموت وكان الموت موصلا له إلى السعادة الدائمة الأبدية فيكون رحمة فى حقه وكذلك النصر إذا قدر أنه قهر وغلب حتى قتل فإذا كان من أهل الهداية والإستقامة مات شهيدا وكان القتل من تمام نعمة الله عليه فتبين أن حاجة العباد إلى الهدى أعظم من حاجتهم إلى الرزق والنصر بل لا نسبة بينهما فلهذا كان هذا الدعاء هو المفروض عليهم وأيضا فإن هذا الدعاء يتضمن الرزق والنصر لأنه إذا هدى الصراط المستقيم كان من المتيقن

{ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ {3} الطلاق2-3 وكان من المتوكلين {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ} الطلاق3 وكان ممن ينصر الله ورسوله ومن ينصر الله ينصره الله وكان من جند الله وجند الله هم الغالبون فالهدى التام يتضمن حصول أعظم ما يحصل به الرزق والنصر فتبين أن هذا الدعاء هو الجامع لكل مطلوب يحصل به كل منفعة ويندفع به كل مضرة فلهذا فرض على العبد وهذا مما يبين أن غير الفاتحة لا يقوم مقامها أصلا وأن فضلها على غيرها من الكلام أعظم من فضل الركوع والسجود على سائر أفعال

الخضوع فإذا تعينت الأفعال فهذا أولى والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم [1]

وما قالته القدرية فهو بناء على أصلهم الفاسد وهو أن إقدار الله المؤمن والكافر والبر والفاجر سواء فلا يقولون إن الله خص المؤمن المطيع بإعانة حصل بها الإيمان بل يقولون إن إعانته للمطيع والعاصي سواء ولكن هذا بنفسه رجح الطاعة وهذا بنفسه رجح المعصية كالوالد الذي أعطى كل واحد من ابنيه سيفا فهذا جاهد به في سبيل الله وهذا قطع به الطريق أو أعطاهما مالا فهذا أنفقه في سبيل الله وهذا أنفقه في سبيل الشيطان وهذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة المثبتين للقدر فإنهم متفقون على أن لله على عبده المطيع المؤمن نعمة دينية خصه بها دون الكافر وأنه أعانه على الطاعة إعانة لم يعن بها الكافر كما قال تعالى { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ }الحجرات7 فبين أنه حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم فالقدرية تقول هذا التحبيب والتزيين عام في كل الخلق أو هو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق والآية تقتضي أن هذا خاص بالمؤمنين ولهذا قال { أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ }الحجرات7 والكفار ليسوا راشدين وقال تعالى {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء }الأنعام125 وقال {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }الأنعام122 وقد أمر الله عباده أن يقولوا {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ {7} الفاتحة6-7 والدعاء إنما يكون لشيء مستقبل غير حاصل يكون من فعل الله تعالى وهذه الهداية المطلوبة غير الهدي الذي هو بيان الرسول صلى الله عليه وسلم وتبليغه وقال تعالى {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ }المائدة16 [2]

الذنوب من لوازم نفس الانسان

كان أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة { اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة6-7 فانه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته و ترك معصيته فلم يصبه شر لا في الدنيا و لا فى الآخرة لكن الذنوب هي من لوازم نفس الانسان و هو محتاج إلى الهدى في كل لحظة و هو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل و الشرب ليس كما يقوله طائفة من المفسرين إنه قد هداه فلماذا يسأل الهدى وأن المراد بسؤال الهدى الثبات أو مزيد الهداية بل العبد محتاج إلى أن يعلمه ربه ما يفعله من تفاصيل أحواله و إلى ما يتولد من تفاصيل الأمور فى كل يوم وإلى أن يلهم أن يعمل ذلك فانه لا يكفى مجرد علمه إن لم يجعله الله مريدا للعمل بعلمه وإلا كان العلم حجة عليه و لم يكن مهتديا والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادرا على العمل بتلك الارادة الصالحة فانه لايكون مهتديا إلى الصراط المستقيم صراط { الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ

---

[1]- مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 399-402

[2]منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 43-44

عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ }النساء69إلا بهذه العلوم و الارادات و القدرة على ذلك ويدخل فى ذلك من أنواع الحاجات مالا يمكن إحصاؤه [1]

قال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً }النساء79 فهذه الاية بيان أن الانسان هو فاعل السيئات و انه يستحق عليها العقاب و الله ينعم عليه بالحسنات عملها و جزائها فانه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله فالنعم من الله سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء و إذا كانت جزاء و هى من الله فالعمل الصالح الذى كان سببها هو أيضا من الله أنعم بهما الله على العبد و إلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه لكان كل ذلك من نفسه و الله تعالى قد فرق بين النوعين فى الكتاب و السنة كما فى الحديث الصحيح الالهي عن الله يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن و جد خيرا فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه و قد أمروا أن يقولوا فى الصلاة { اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة6-7 [2]

المقصود بالصراط المستقيم

أسماء القرآن القرآن الفرقان الكتاب الهدى النور الشفاء البيان الموعظة الرحمة بصائر البلاغ الكريم المجيد العزيز المبارك التنزيل المنزل الصراط المستقيم حبل الله الذكر الذكرى تذكرة فى الآيات الدالة على اتباع القرآن قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 فإنه فى التفسير المرفوع عن النبى صلى الله عليه و سلم كتاب الله [3]

فالصراط المستقيم هو ما بعث الله به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بفعل ما أمر وترك ما حظر وتصديقه فيما أخبر ولا طريق الى الله إلا ذلك وهذا سبيل أولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وجند الله الغالبين وكل ما خالف ذلك فهو من طرق أهل الغي والضلال وقد أمرنا الله سبحانه أن نقول فى صلاتنا {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة6-7 [4]

والصراط في لغة العرب هو الطريق يقال هو الطريق الواضح ويقال هو الطريق المحدود بجانبين الذي لا يخرج عنه ومنه الصراط المنصوب على جهنم وهو الجسر الذي يعبر عليه المؤمنون إلى الجنة وإذا عبر عليه الكفار سقطوا في جهنم ويقال فيه معنى الاستواء والاعتدال الذي يوجب سرعة العبور عليه وفيه ثلاث لغات هي ثلاث قراءات الصراط والسراط والزراط وهي لغة عربية عرباء ليست من المعرب ولا مأخوذة من لغة الروم كما زعموا ويقال أصله من قولهم سرطت الشيء أسرطه سرطا إذا ابتلعته واسترطته ابتلعته فإن المبتلع يجري بسرعة في مجرى محدود ومن أمثال العرب لا تكن حلوا فتسترط ولا مرا فتعفى من قولهم أعفيت الشيء إذا أزلته من فيك لمرارته ويقال

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 320-322

[2] - مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 248 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 32

[3] مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 2

[4] - مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 136

فلان يسترط ما يأخذ من الدين وحكى يعقوب بن السكيت الأخذ سريط والقضاء صريط والسرطاط الفالوذج لأنه يسترط استراطا وسيف سراطي أي قاطع فإنه ماض سريع المذهب في مضربه فالصراط هو الطريق المحدود المعتدل الذي يصل سالكه إلى مطلبه بسرعة وقد ذكر الله لفظ الصراط في كتابه في غير موضع ولم يسم الله سبيل الشيطان سراطا بل سماها سبلا وخص طريقه باسم الصراط كقوله تعالى {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }الأنعام153 وفي السنن عن عبد الله بن مسعود قال خط لنا رسول الله خطا وخط خطوطا عن يمينه وشماله ثم قاله هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه من أجابه قذفه في النار ثم قرأ {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ }الأنعام153 فسمى سبحانه طريقه صراطا وسمى تلك سبلا ولم يسمها صراطا كما سماها سبيلا وطريقه يسميه سبيلا كما يسميه صراطا [1]

فالسلف كثيرا ما يعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه وان كان فيها من الصفة ما ليس فى الاسم الآخر كمن يقول أحمد هو الحاشر والماحى والعاقب والقدوس هو الغفور والرحيم أى أن المسمى واحد لا ان هذه الصفة هى هذه الصفة ومعلوم أن هذا ليس اختلاف تضاد كما يظنه بعض الناس مثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم فقال بعضهم هو القرآن أى اتباعه لقول النبى فى حديث على الذى رواه الترمذى ورواه أبو نعيم من طرق متعددة هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وقال بعضهم هو الإسلام لقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث النواس بن سمعان الذى رواه الترمذى وغيره ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتى الصراط سوران وفى السورين أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وداع يدعو من فوق الصراط وداع يدعو على رأس الصراط قال فالصراط المستقيم هو الاسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله والداعى على رأس الصراط كتاب الله والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن فهذان القولان متفقان لأن دين الاسلام هو اتباع القرآن ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر كما أن لفظ صراط يشعر بوصف ثالث وكذلك قول من قال هو السنة والجماعة وقول من قال هو طريق العبودية وقول من قال هو طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وامثال ذلك فهؤلاء كلهم اشاروا الى ذات واحدة لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها [2]

دين الأنبياء الإسلام

وقد ذكر في غير موضع أن دين الأنبياء كلهم الإسلام كما قال تعالى عن نوح { وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ }النمل91 وقال عن إبراهيم وقال عن إبراهيم { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{131} وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ{132} البقرة 131- 132 وقال يوسف { فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ }يوسف101 {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ

---

[1] الجواب الصحيح ج: 3 ص: 178-180

[2] - مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 336 و دقائق التفسير ج: 2 ص: 480

فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ }يونس84 وقال عن السحرة { رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ }الأعراف126 وقال عن بلقيس { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }النمل44 وقال { يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ }المائدة44 وقال {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ }المائدة111 وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وتنوع الشرائع لا يمنع أن يكون الدين واحدا وهو الإسلام كالدين الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم فإنه هو دين الإسلام أولا وآخرا وكانت القبلة في أول الأمر بيت المقدس ثم صارت القبلة الكعبة وفي كلا الحالين الدين واحد وهو دين الإسلام فهكذا سائر ما شرع للأنبياء قبلنا ولهذا حيث ذكر الله الحق في القرآن جعله واحدا وجعل الباطل متعددا كقوله {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }الأنعام153 وقوله { اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة 6- 7 وقوله{شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }النحل121 وقوله { وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً }الفتح2 وقوله {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ }البقرة257

[1]

الصراط المستقيم يتضمن علم وعمل

قال الله تعالى{ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2} وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{3} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى{4} النجم 1-4 إلى قوله {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى{19} وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى{20} أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى{21} تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى{22}إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى{23}النجم19-23 فنزه الله رسوله عن الضلال والغي والضلال عدم العلم والغي اتباع الهوى كما قال تعالى{وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً }الأحزاب72 فالظلوم غاو والجهول ضال إلا من تاب الله عليه كما قال تعالى {لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً }الأحزاب73 ولهذا أمرنا الله أن أن نقول في صلاتنا {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7}الفاتحة6-7 فالضال الذي لم يعرف الحق كالنصارى والمغضوب عليه الغاوي الذي يعرف الحق ويعمل بخلافة كاليهود والصراط المستقيم يتضمن معرفة الحق والعمل به كما في الدعاء المأثور اللهم أرني الحق حقا ووفقني لاتباعه وأرني الباطل باطلا ووفقني لاجتنابه ولا تجعله مشتبها علي فأتبع الهوى وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يصلي يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم فمن خرج عن الصراط المستقيم كان متبعا لظنه وما تهواه نفسه { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }القصص50 وهذا حال

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 265-267

أهل البدع المخالفة للكتاب والسنة فإنهم إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ففيهم جهل وظلم لا سيما الرافضة فإنهم أعظم ذوي الأهواء جهلا وظلما يعادون خيار أولياء الله تعالى من بعد النبيين من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ويوالون الكفار والمنافقين من اليهود والنصارى والمشركين وأصناف الملحدين كالنصيرية والإسماعيلية وغيرهم من الضالين فتجدهم أو كثيرا منهم إذا اختصم خصمان في ربهم من المؤمنين والكفار واختلف الناس فيما جاءت به الأنبياء فمنهم من آمن ومنهم من كفر سواء كان الاختلاف بقول أو عمل كالحروب التي بين المسلمين وأهل الكتاب والمشركين تجدهم يعاونون المشركين وأهل الكتاب على المسلمين أهل القرآن كما قد جربه الناس منهم غير مرة في مثل إعانتهم للمشركين من الترك وغيرهم على أهل الإسلام بخراسان والعراق والجزيرة والشام [1]

الاعتصام بالكتاب والسنة

فعلى كل مسلم ان ينظر فيما أمر الله به ورسوله فيفعله وما نهى الله عنه ورسوله فيتركه هذا هو طريق الله وسبيله ودينه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهذا الصراط المستقيم يشتمل على علم وعمل علم شرعى وعمل شرعى فمن علم ولم يعمل بعلمه كان فاجرا ومن عمل بغير علم كان ضالا وقد امرنا الله سبحانه ان نقول {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7}} الفاتحة6-7 قال النبى اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وذلك ان اليهود عرفوا الحق ولم يعملوا به والنصارى عبدوا الله بغير علم ولهذا كان السلف يقولون احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون وكانوا يقولون من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى فمن دعا إلى العلم دون العمل المأمور به كان مضلا ومن دعا الى العمل دون العلم كان مضلا واضل منهما من سلك فى العلم طريق أهل البدع فيتبع امورا تخالف الكتاب والسنة يظنها علوما وهى جهالات وكذلك من سلك فى العبادة طريق أهل البدع فيعمل أعمالا تخالف الأعمال المشروعة يظنها عبادات وهي ضلالات فهذا وهذا كثير فى المنحرف المنتسب إلى فقه أو فقر يجتمع فيه انه يدعو إلى العلم دون العمل والعمل دون العلم ويكون ما يدعو إليه فيه بدع تخالف الشريعة وطريق الله لا تتم إلا بعلم وعمل يكون كلاهما موافقا الشريعة فالسالك طريق الفقر والتصوف والزهد والعبادة ان لم يسلك بعلم يوافق الشريعة والا كان ضالا عن الطريق وكان ما يفسده اكثر مما يصلحه والسالك من الفقه والعلم والنظر والكلام ان لم يتابع الشريعة ويعمل بعلمه والا كان فاجرا ضالا عن الطريق فهذا هو الأصل الذى يجب اعتماده على كل مسلم وأما التعصب لأمر من الامور بلا هدى من الله فهو من عمل الجاهلية{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ} القصص50 [2]

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 1 ص:18- 20

[2] - مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 26

الاعتصام بالسنة نجاة

فالسنة مثال سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق قال الزهري كان من مضى من علمائنا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة وعامة من تجد له حالا من مكاشفة أو تأثير أعان به الكفار أو الفجار أو استعمله في غير ذلك من معصية فإنما ذاك نتيجة عبادات غير شرعية كمن اكتسب أموالا محرمة فلا يكاد ينفقها إلا في معصية الله والبدع نوعان نوع في الأقوال والاعتقادات ونوع في الأفعال والعبادات وهذا الثاني يتضمن الأول كما أن الأول يدعو إلى الثاني فالمنتسبون إلى العلم والنظر وما يتبع ذلك يخاف عليهم إذا لم يعتصموا بالكتاب والسنة من القسم الأول والمنتسبون إلى العبادة والنظر والإرادة وما يتبع ذلك يخاف عليهم إذا لم يعتصموا بالكتاب والسنة من القسم الثاني وقد أمرنا الله أن نقول في كل صلاة {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة 7-6 آمين وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون قال سفيان بن عيينة كانوا يقولون من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى وكان السلف يقولون احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون فطالب العلم إن لم يقترن بطلبه فعل ما يجب عليه وترك ما يحرم عليه من الاعتصام بالكتاب والسنة وإلا وقع في الضلال وأهل الإرادة إن لم يقترن بإرادتهم طلب العلم الواجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة وإلا وقعوا في الضلال والبغي ولو اعتصم رجل بالعلم الشرعي من غير عمل بالواجب كان باغيا وإذا اعتصم بالعبادة الشرعية من غير علم بالواجب كان ضالا والضلال سمة النصارى والبغي سمة اليهود مع أن كلا من الأمتين فيها الضلال والبغي[1]

التقليد لا يورث الجزم

فإن العبد مأمور بالتزام الصراط المستقيم في كل أموره وقد شرع الله تعالى أن نسأله ذلك في كل صلاة وهو أفضل الدعاء وأفرضه وأجمعه لكل خير وكل أحد محتاج إلى الدعاء به فلهذا أوجبه الله تعالى على العبد في كل صلاة فإنه وإن كان قد هدي هدى مجملا مثل إقراره بأن الإسلام حق والرسول حق فهو محتاج إلى التفصيل في كل ما يقوله ويفعله ويعتقده فيثبته أو ينفيه ويحبه أو يبغضه ويأمر به أو ينهى عنه ويحمده أو يذمه وهو محتاج في جميع ذلك إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا فإن كثيرا ممن سمع ذم الكلام مجملا أو سمع ذم الطائفة الفلانية مجملا وهو لا يعرف تفاصيل الأمور من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية والعامة ومن كان متوسطا في الكلام لم يصل إلى الغايات التي منها تفرقوا واختلفوا تجده يذم القول وقائله بعبارة ويقبله بعبارة ويقرأ كتب التفسير والفقه وشروح الحديث وفيها تلك المقالات التي كان يذمها فيقبلها من أشخاص أخر يحسن الظن بهم وقد ذكروها بعبارة أخرى أو في ضمن تفسير آية أو حديث أو غير ذلك وهذا مما يوجد كثيرا والسالم من سلمه الله حتى أن كثيرا من هؤلاء يعظم أئمة ويذم أقوالا قد يلعن قائلها أو يكفره وقد قالها أولئك الأئمة الذين يعظمهم ولو علم أنهم قالوها لما لعن القائل وكثير منها يكون قد قاله النبي صلى الله عليه

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 499

وسلم وهو لا يعرف ذلك فإن كان ممن قبلها من المتكلمين تقليديا فإنه يتبع من يكون في نفسه أعظم فإن ظن أن المتكلمين حققوا ما لم يحققه أئمتهم قلدهم وإن ظن أن الائمة أجل قدرا وأعرف بالحق وأتبع للرسول قلدهم وإن كان قد عرف الحجة الكلامية على ذلك القول وبلغه أن أئمة يعظمهم قالوا بخلافه أو جاء الحديث بخلافه بقي في الحيرة وإن رجح أحد الجانبين رجح على مضض وليس عنده ما يبني عليه وإنما يستقر قلبه بما يعرف صحة أحد القولين جزما فإن التقليد لا يورث الجزم فإذا جزم بأن الرسول قاله وهو عالم بأنه لا يقول إلا الحق جزم بذلك وإن خالفه بعض أهل الكلام وعلم الإنسان باختلاف هؤلاء ورد بعضهم على بعض وإن لم يعرف بعضهم فساد مقالة بعض هو من أنفع الأمور فإنه ما منهم إلا من قد فضل مقالته طوائف فإذا عرف رد الطائفة الأخرى على هذه المقالة عرف فسادها فكان في ذلك نهى عما فيها من المنكر والباطل وكذلك إذا عرف رد هؤلاء على أولئك فإنه أيضا يعرف ما عند أولئك من الباطل فيتقي الباطل الذي معهم ثم من بين الله له الذي جاء به الرسول إما بأن يكون قولا ثالثا خارجا عن القولين وإما بأن يكون بعض قول هؤلاء وبعض قول هؤلاء وعرف أن هذا هو الذي كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان وعليه دل الكتاب والسنة كان الله قد أتم عليه النعمة إذ هداه الصراط المستقيم وجنبه صراط أهل البغي والضلال وإن لم يتبين له كان امتناعه من موافقه هؤلاء على ضلالهم وهؤلاء على ضلالهم نعمة في حقه واعتصم بما عرفه من الكتاب والسنة مجملا وأمسك عن الكلام في تلك المسألة وكانت من جملة ما لم يعرفه فإن الإنسان لا يعرف الحق في كل ما تكلم الناس به وأنت تجدهم يحكون أقوالا متعددة في التفسير وشرح الحديث في مسائل الأحكام بل والعربية والطب وغير ذلك ثم كثير من الناس يحكي الخلاف ولا يعرف الحق [1]

لا يسوغ الخروج عن موجب العموم والاطلاق فى الكتاب والسنة بالشبهات

فان الامام ان يخطيء فى العفو خير من ان يخطيء فى العقوبة لكن لا يتوقف في رد ما خالف الكتاب والسنة فان النبى قال من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد فلا يسوغ الخروج عن موجب العموم والاطلاق فى الكتاب والسنة بالشبهات ولا يسوغ الذم والعقوبة بالشبهات ولا يسوغ جعل الشيء حقا او باطلا او صوابا او خطأ بالشبهات والله يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين انعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء أو الصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين[2]

مجرد العلم بالحق لا يحصل به الإهتداء

فطائفة من المفسرين تقول فى هذه الآيات وما اشبهها كقوله {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ }يونس12 وأمثالها مما ذكر الله فى عيوب الانسان وذمها فيقول هؤلاء هذه الاية فى الكفار والمراد بالانسان هنا الكافر فيبقى من يسمع ذلك يظن انه ليس لمن يظهر الاسلام فى هذا الذم والوعيد نصيب بل يذهب وهمه الى من كان مظهرا للشرك من العرب او الى من يعرفهم من مظهرى الكفر كاليهود والنصارى ومشركى الترك

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 280-282

[2] **مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 385**

والهند ونحو ذلك فلا ينتفع بهذه الآيات التى أنزلها الله ليهتدى بها عباده فيقال اولا المظهرون للاسلام فيهم مؤمن ومنافق والمنافقون كثيرون فى كل زمان والمنافقون فى الدرك الاسفل من النار ويقال ثانيا الانسان قد يكون عنده شعبة من نفاق وكفر وان كان معه ايمان كما قال النبى فى الحديث المتفق عليه أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها اذا حدث كذب واذا اؤتمن خان واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر فأخبر أنه من كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق وقد ثبت فى الحديث الصحيح أنه قال لابى ذر رضى الله عنه انك امرؤ فيك جاهلية وابو ذر رضى الله عنه من أصدق الناس ايمانا وقال فى الحديث الصحيح أربع فى امتى من امر الجاهلية الفجر بالاحساب والطعن فى الأنساب والنياحة والاستسقاء بالنجوم وقال فى الحديث الصحيح لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذه حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه قالوا اليهود والنصارى قال فمن وقال أيضا فى الحديث الصحيح لتأخذن أمتى ما أخذت الامم قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع قالوا فارس والروم قال ومن الناس الا هؤلاء وقال ابن أبى مليكة أدركت ثلاثين من اصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه وعن على او حذيفة رضى الله عنهما قال القلوب اربعة قلب اجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب اغلف فذاك قلب الكافر وقلب منكوس فذاك قلب المؤمن المنافق وقلب فيه مادتان مادة تمده الاريمان ومادة تمده النفاق فأوليك قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وإذا عرف هذا علم ان كل عبد ينتفع بما ذكر الله فى الايمان من مدح شعب الايمان وذم شعب الكفر وهذا كما يقول بعضهم فى قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 فيقولون المؤمن قد هدى الى الصراط المستقيم فأى فائدة فى طلب الهدى ثم يجيب بعضهم بأن المراد ثبتنا على الهدى كما تقول العرب للنائم نم حتى آيتك او يقول بعضهم الزم قلوبنا الهدى فحذف المزوم ويقول بعضهم زدنى هدى وإنما يوردون هذا السؤال لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذى يطلب العبد الهداية اليه فان المراد به العمل بما امر الله به وترك ما نهى الله عنه فى جميع الأمور والانسان وإن كان أقر بان محمدا رسول الله وان القرآن حق على سبيل الاجمال فاكثر ما يحتاج اليه من العلم بما ينفعه ويضره وما امر به وما نهى عنه فى تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفه وما عرفه فكثير منه لم يعمل بعلمه ولو قدر أنه بلغه كل أمر ونهى فى القرآن والسنة فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الامور العامة الكلية لا يمكن غير ذلك لا نذكر ما يخص به كل عبد ولهذا امر الانسان فى مثل ذلك بسؤال الهدى الى الصراط المستقيم والهدى الى الصراط المستقيم يتناول هذا كله يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلا ويتناول التعريف بما يدخل فى اوامره الكليات ويتناول الهام العمل بعلمه فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الإهتداء أن لم يعمل بعلمه ولهذا قال لنبيه بعد صلح الحديبية { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً{1} لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{2}الفتح 1-2 وقال فى حق موسى وهرون { وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ{117} وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ{118} الصافات117-118 والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الامور الخبرية والعلمية الاعتقادية والعملية مع أنهم كلهم متفقون على أن محمدا حق والقرآن حق فلو حصل لكل منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه ولا يحتذون حذوه فلو هدوا الى الصراط المستقيم فى تلك الأعمال لفعلوا ما أمروا به وتركوا ما نهو عنه والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء فى كل صلاة مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم الى الله دائما فى أن يهديهم الصراط المستقيم فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين قال سهل ابن عبد الله التسترى ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار وما حصل فيه الهدى فى

الماضى فهو محتاج الى حصول الهدى فيه في المستقبل وهذا حقيقة قول من يقول ثبتنا واهدنا لزوم الصراط وقوله من قال زدنا هدى يتناول ما تقدم لكن هذا كله هدى منه فى المستقبل الى الصراط المستقيم فان العمل فى المستقبل بالعلم لم يحصل بعد ولا يكون مهتديا حتى يعمل فى المستقبل بالعلم وقد لا يحصل العلم فى المستقبل بل يزول عن القلب وان حصل فقد لايحصل العمل فالناس كلهم مضطرون الى هذا الدعاء ولهذا فرضه الله عليهم فى كل صلاة فليسوا الى شئ من الدعاء احوج منهم اليه وإذا حصل الهدى الى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من السعادة والله اعلم واعلم ان حياة القلب وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة الارادية أو مجرد العلم والقدرة كما يظن ذلك طائفة من النظار فى علم الله وقدرته كابى الحسين البصرى قالوا إن حياته انه بحيث يعلم ويقدر بل الحياة صفة قائمة بالموصوف وهى شرط فى العلم والارادة والقدرة على الافعال الاختيارية وهى ايضا مستلزمة لذلك فكل حى له شعور وارادة وعمل اختيارى بقدرة وكل ما له علم وارادةوعمل اختيارى فهو حى والحياء مشتق من الحياة فان القلب الحى يكون صاحبه حيا فيه حياء يمنعه عن القبائح فان حياة القلب هى المانعة من القبائح التى تفسد القلب ولهذا قال النبى الحياء من الايمان وقال الحياء والعى شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق فإن الحى يدفع ما يؤذيه بخلاف الميت الذى لاحياة فيه فانه يسمى وقحا والوقاحة الصلابة وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة فاذا كان وقحا يابسا صليب الوجه لم يكن فى قلبه حياة توجب حياءه وامتناعه من القبح كالأرض اليابسة لا يؤثر فيها وطء الاقدام بخلاف الأرض الخضرة ولهذا كان الحى يظهر عليه التأثر بالقبح وله ارادة تمنعه عن فعل القبح بخلاف الوقح الذى ليس بحى فلا حياء معه ولا إيمان يزجره عن ذلك فالقلب إذا كان حيا فمات الانسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن ليست فى نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها ولهذا قال تعالى {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ }البقرة154 وقال تعالى {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ }آل عمران169 مع انهم موتى داخلون فى قوله {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ }الأنبياء35 وفى قوله {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ }الزمر30 وقوله {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ }الحج66 فالموت المثبت غير الموت المنفى المثبت هو فراق الروح البدن والمنفى زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن وهذا كما ان النوم اخو الموت فيسمى وفاة ويسمى موتا وان كانت الحياة موجودة فيهما قال الله تعالى{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }الزمر42 وكان النبى إذ استيقظ من منامه يقول الحمد لله الذى أحيانا بعد ما اماتنا وإليه النشور وفى حديث آخر الحمد لله الذى رد على روحى وعافانى فى جسدى وأذن لى بذكره وفضلنى على كثير ممن خلق تفضيلا وإذا أوى إلى فراشه يقول اللهم انت خلقت نفسى وأنت توفاها لك مماتها ومحياها إن امسكتها فارحمها وان ارسلتها فاحفظها لما تحفظ به عبادك الصالحين ويقول باسمك اللهم اموت واحيا [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 108 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 11-12

العلم بالحق يوجب إتباعه

أن العمل إما بمعرفة الحق وإتباعه فى العلم والعمل جميعا صلاح القول والعمل العلم والإرادة والعلم أصل العمل و أصل الإرادة والمحبة وغير ذلك وهو مستلزم له مالم يحصل معارض مانع فالعلم بالحق يوجب إتباعه إلا لمعارض راجح مثل إتباع الهوى بالإستكبار ونحوه كحال الذين قال الله فيهم {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً}الأعراف146 وقال {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّا}النمل14 وقال {فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ }الأنعام33 ولهذا قال {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}ص26 ونحو ذلك فإن أصل الفطرة التى فطر الناس عليها إذا سلمت من الفساد إذا رأت الحق إتبعته وأحبته إذ الحق نوعان حق موجود فالواجب معرفته والصدق فى الإخبار عنه وضد ذلك الجهل والكذب وحق مقصود وهو النافع للإنسان فالواجب إرادته والعمل به وضد ذلك إرادة الباطل وإتباعه ومن المعلوم أن الله خلق فى النفوس محبة العلم دون الجهل ومحبة الصدق دون الكذب ومحبة النافع دون الضار وحيث دخل ضد ذلك فلمعارض من هوى وكبر وحسد ونحو ذلك كما انه فى صالح الجسد خلق الله فيه محبة الطعام والشراب الملائم له دون الضار فإذا إشتهى ما يضره أن كره ما ينفعه فلمرض فى الجسد وكذلك أيضا إذا إندفع عن النفس المعارض من الهوى والكبر والحسد وغير ذلك أحب القلب ما ينفعه من العلم النافع والعمل الصالح كما أن الجسد إذا إندفع عنه المرض أحب ما ينفعه من الطعام والشراب فكل واحد من وجود المقتضى وعدم الدافع سبب للآخر وذلك سبب لصلاح حال الإنسان وضدهما سبب لضد ذلك فإذا ضعف العلم غلبه الهوى الإنسان وإن وجد العلم والهوى وهما المقتضى والدافع فالحكم للغالب وإذا كان كذلك فصلاح بنى آدم الإيمان والعمل الصالح ولا يخرجهم عن ذلك إلا شيئان أحدهما الجهل المضاد للعلم فيكونون ضلالا والثانى إتباع الهوى والشهوة اللذين فى النفس فيكونون غواة مغضوبا عليهم ولهذا قال {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2} النجم 1-2 وقال عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ فوصفهم بالرشد الذى هو خلاف الغى وبالهدى الذى هو خلاف الضلال وبهما يصلح العلم والعمل جميعا ويصير الإنسان عالما عادلا لا جاهلا ولا ظالما وهم فى الصلاح على ضربين تارة يكون العبد إذا عرف الحق وتبين له إتبعه وعمل به فهذا هو الذى يدعى الحكمة وهو الذى يتذكر وهو الذى يحدث له القرآن ذكرا والثانى ان يكون له من الهوى والمعارض ما يحتاج معه إلى الخوف الذى ينهى النفس عن الهوى فهذا يدعى بالموعظة الحسنة وهذا هو القسم الثانى المذكور فى قوله { أَوْ يَخْشَى }طه44 وفى قوله { لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }طه113 وقد قال فى السورة فى قصة فرعون { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{17} فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19} النازعات 17-19 فجمع بين التزكى والهدى والخشية كما جمع بين العلم والخشية فى قوله { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء }فاطر28 وفى قوله { وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ }الأعراف154 وفى قوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً{66} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{67} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{68} النساء66-68 وذلك لما ذكرنا من أن كل واحد من العلم بالحق الذى يتضمنه التذكر والذكر الذى يحدثه القرآن ومن الخشية المانعة من إتباع الهوى سبب لصلاح حال الإنسان وهو مستلزم للآخر إذا قوى على ضده فإذا قوى العلم والتذكر دفع الهوى وإذا إندفع الهوى بالخشية أبصر

القلب وعلم وهاتان هما الطريقة العلمية والعملية كل منهما إذا صحت تستلزم ما تحتاج إليه من الأخرى وصلاح العبد ما يحتاج إليه ويجب عليه منهما جميعا ولهذا كان فساده بإنتفاء كل منهما فإذا إنتفى العلم الحق كان ضالا غير مهتد وإذا إنتفى إتباعه كان غاويا مغضوبا عليه ولهذا قال {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة7 وقال {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2} وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{3} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى{4}النجم 1-4 وقال فى ضد ذلك {إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ }النجم23 [1]

المهتدي الذي هداه الله الصراط المستقيم

وهو صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى في حقه { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2} وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{3} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى{4} النجم1-4 فهو ما ضل وما غوى وكذلك خلفاؤه الراشدون الذين قال فيهم عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ فانهم خلفوه في ذلك فانتفى عنهم بالهدى الضلال وبالرشد الغي وهذا هو الكمال في العلم والعمل فان الضلال عدم العلم والغي اتباع الهوى ولهذا امرنا الله تعالى إن نقول في صلاتنا { اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7}} الفاتحة 6-7 وقال النبي صلى الله عليه وسلم اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون فالمهتدي الراشد الذي هداه الله الصراط المستقيم فلم يكن من أهل الضلال الجهال ولا من أهل الغي المغضوب عليهم[2]

من هم المنعم عليهم

المنعم عليهم هم الذين ذكرهم الله في قوله {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً }النساء69 فهؤلاء هم الذين أمر الله عباده أن يسألوا هداية صراطهم فالنصارى الذين كانوا على دين المسيح قبل النسخ والتبديل فهم من المنعم عليهم كما أن اليهود الذين كانوا على دين موسى قبل النسخ والتبديل كانوا من المنعم عليهم وأما النصارى بعد النسخ والتبديل فهم من الضالين لا من المنعم عليهم عند الله ورسوله كما قال تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ }المائدة77 وقال تعالى {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }مريم38 وعباد الأصنام من الضالين المغضوب عليهم وقد قال النبي اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون رواه الإمام أحمد والترمذي عن عدي بن حاتم عن النبي وقال الترمذي هذا حديث صحيح وسبب ذلك أن اليهود يعرفون الحق ولا يعملون به والنصارى يعبدون بلا علم وقد وصف الله اليهود بأعمال والنصارى بأعمال فوصف اليهود بالكبر والبخل والجبن والقسوة وكتمان العلم وسلوك سبيل الغي وهو سبيل الشهوات والعدوان وذكر عن النصارى الغلو والبدع في العبادات والشرك والضلال واستحلال محارم الله فقال تعالى { يَا أَهْلَ

---

[1]- مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 241-244

[2]منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 424

الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{171} لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً{172} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{173} سورة النساء الآيات 171 -173 [1]

قال تعالى {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ }ص45 والحق المبين أن كمال الانسان ان يعبد الله علما وعملا كما امره ربه وهؤلاء هم عباد الله وهم المؤمنون والمسلمون وهم اولياء الله المتقون وحزب الله المفلحون وجند الله الغالبون وهم اهل العلم النافع والعمل الصالح وهم الذين زكوا نفوسهم وكملوها كملوا القوة النظرية العلمية والقوة الارادية العملية كما قال تعالى{اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة 6-7 [2]

عصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة

ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء لا نبي بعده فعصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة وجعل فيها من تقوم به الحجة إلى يوم القيامة ولهذا كان إجماعهم حجة كما كان الكتاب والسنة حجة ولهذا امتاز أهل الحق من هذه الأمة والسنة والجماعة عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنة رسول الله وعما مضت عليه جماعة المسلمين فإن الله أمر في كتابه باتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولزوم سبيله وأمر بالجماعة والائتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى{اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة 6-7 وقد صح عن النبي أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون فأمر سبحانه في أم الكتاب التي لم ينزل في التوارة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها والتي أعطيها نبينا من كنز تحت العرش التي لا تجزىء صلاة إلا بها أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم كاليهود ولا الضالين كالنصارى وهذا الصراط المستقيم هو دين الإسلام المحض وهو ما في كتاب الله تعالى وهو السنة والجماعة فإن السنة المحضة هي دين الإسلام المحض فإن النبي روى عنه من وجوه متعددة رواها أهل السنن والمسانيد كالإمام أحمد وأبي داود والترمذي وغيرهم أنه قال ستفترق هذه الأمة على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة وفي رواية من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي وهذه الفرقة الناجية أهل السنة وهم وسط في النحل كما أن ملة الإسلام وسط في الملل فالمسلمون وسط في أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين لم يغلوا فيهم كما غلت النصارى فاتخذوا أحبارهم

1- [1] الجواب الصحيح ج: 3 ص: 166-168

-2

[2] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 97

ورهبانهم أرباب من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ولا جفوا عنهم كما جفت اليهود فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس وكلماجاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقا وقتلوا فريقا بل المؤمنون آمنوا برسل الله وعزروهم ونصروهم ووقروهم وأحبوهم وأطاعوهم ولم يعبدوهم ولم يتخذوهم أربابا كما قال تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ {79} وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلآئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{80}آل عمران79 -80 ومن ذلك أن المؤمنين توسطوا في المسيح فلم يقولوا هو الله ولا ابن الله ولا ثالث ثلاثة كما تقوله النصارى ولا كفروا به وقالوا على مريم بهتانا عظيما حتى جعلوه ولد بغية كما زعمت اليهود بل قالوا هذا عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه[1]

أصحاب رسول الله خير القرون

وإنما دين الله ما بعث به رسله وأنزل به كتبه وهو الصراط المستقيم وهو طريقة أصحاب رسول الله خير القرون وأفضل الأمة وأكرم الخلق على الله تعالى بعد النبيين قال تعالى {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ }التوبة100 فرضى عن السابقين الأولين رضا مطلقا ورضى عن التابعين لهم بإحسان وقد قال النبى فى الأحاديث الصحيحة خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب رسول الله أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم وقال حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما يا معشر القراء استقيموا وخذوا طريق من كان قبلكم فوالله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقا بعيدا ولئن أخذتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا وقد قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه خط لنا رسول الله خطا وخط حوله خطوطا عن يمينه وشماله ثم قال هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعوا اليه ثم قرأ {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ }الأنعام153 وقد أمرنا سبحانه أن نقول فى صلاتنا {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة6-7 وقال النبى اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه والنصارى عبدوا الله بغير علم ولهذا كان يقال تعوذوا بالله من فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون وقال تعالى { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{124} طه 123-124 قال ابن عباس رضى الله عنهما تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة وقرأ هذه الآية وكذلك قوله تعالى {الم{1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{3} والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 369-371

مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ{4} أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{5} البقرة1-5 فأخبر أن هؤلاء مهتدون مفلحون وذلك خلاف المغضوب عليهم والضالين فنسأل الله العظيم أن يهدينا وسائر اخواننا صراطه المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا[1]

أمر بسؤاله الهداية الى صراطهم

فالأمر باتباع الكتاب والسنة فكثير جدا كقوله {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ }الأعراف3 {وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ }الأنعام155 واما السلف مثل قوله { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ }النساء83 ومنها قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة6-7 أمر بسؤاله الهداية الى صراطهم وقال {فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً }النساء69 الآية وفيها الدلالة ومنها قوله{وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ }النساء115 ومن خرج عن اجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم ومنها قوله {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ }التوبة100 والرضوان لا يكون مع اتفاقهم واصرارهم على ذنب او خطأ فان ذلك مقتضاه العفو فانه يدل على انه هدى فى كل شىء وقوله {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ }البقرة257 فانه يقتضى اخراجهم من كل ظلمة ومنها قوله {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }الأحزاب43 وقوله {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }الحديد9 ومنها قوله {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ }آل عمران103 وما كان نحوها من الامر بالجماعة والنهى عن الفرقة[2]

المغضوب عليهم والضالون

والقرآن بين أن السعداء هم الذين اتبعوا الرسل ولا يكون الكامل إلا سعيدا وأن الأشقياء هم المخالفون للرسل فإنما يعذب الله في الآخرة من يخالف الرسل وبين أن من اتبع الهدى الذي جاء من عنده وهو ما جاءت به الرسل فإنه لا يضل ولا يشقى بل يكون من المهتدين المفلحين ولهذا قال في الفاتحة { اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة 6-7 فأهل الغضب والضلال هم أهل الشقاء والضلال وهم الذين قيل فيهم {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ }القمر47 وهم ضد أهل الهدى والفلاح فأهل الهدى الذي يتضمن العلم والسعادة هم المتبعون للكتاب المنزل فمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض كاليهود والنصارى لم يكن من هؤلاء فكيف بمن لم يؤمن بالكتاب[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 371-372 ومجموع الفتاوى ج: 3 ص: 126-127

[2] مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 500-503

[3] الصفدية ج: 2 ص: 246

وقد صح عن النبى أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وكتاب الله يدل على ذلك فى مواضع مثل قوله تعالى {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ}المائدة60 وقوله { فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ}البقرة90 وقوله{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ }البقرة61 وقوله{ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ }آل عمران112 وقال فى النصارى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ }المائدة77 وقال {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ }النساء171 وقال تعالى {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ{30} اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ{31} التوبة30 -31 وقال تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ }آل عمران79 [1]

والنصارى نذمهم على الغلو والشرك الذى ابتدعوه وعلى تكذيب الرسول والرهبانية التى ابتدعوها ولا نحمدهم عليها اذ كانوا قد ابتدعوها وكل بدعة ضلالة لكن اذا كان صاحبها قاصدا للحق فقد يعفى عنه فيبقى عمله ضائعا لا فائدة فيه وهذا هو الضلال الذي يعذر صاحبه فلا يعاقب ولا يثاب ولهذا قال { غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة7 فان المغضوب عليه يعاقب بنفس الغضب والضال فاته المقصود وهو الرحمة والثواب ولكن قد لا يعاقب كما عوقب ذلك بل يكون ملعونا مطرودا ولهذا جاء فى حديث زيد بن عمرو بن نفيل ان اليهود قالوا له لن تدخل فى ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله وقال له النصارى حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله وقال الضحاك وطائفة ان جهنم طبقات فالعليا لعصاة هذه الامة والتى تليها للنصارى والتى تليها لليهود فجعلوا اليهود تحت النصارى والقرآن قد شهد بان المشركين واليهود يوجدون أشد عداوة للذين آمنوا من الذين قالوا انا نصارى وشدة العداوة زيادة في الكفر فاليهود أقوى كفرا من النصارى وان كان النصارى أجهل وأضل لكن أولئك يعاقبون على عملهم اذ كانوا عرفوا الحق وتركوه عنادا فكانوا مغضوبا عليهم وهؤلاء بالضلال حرموا أجر المهتدين ولعنوا وطردوا عما يستحقه المهتدون ثم اذا قامت عليهم الحجة فلم يؤمنوا استحقوا العقاب إذ كان اسم الضلال عاما وقد كان النبى يقول في الحديث الصحيح فى خطبة يوم الجمعة خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة ولم يقل وكل ضلالة فى النار بل يضل عن الحق من قصد الحق وقد اجتهد فى طلبه فعجز عنه فلا يعاقب وقد يفعل بعض ما أمر به فيكون له أجر على اجتهاده وخطؤه الذي ضل فيه عن حقيقة الأمر مغفور له وكثير من مجتهدى السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة ولم يعلموا انه بدعة إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة وإما لآيات فهموا منها ما لم يرد منها وإما لرأى رأوه وفي المسألة نصوص لم تبلغهم واذا اتقى الرجل ربه ما استطاع دخل فى قوله {

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 64

رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}البقرة286 وفي الصحيح ان الله قال قد فعلت وبسط هذا له موضع آخر [1]

والمغضوب عليهم هم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه والضالون الذين يعبدون الله بغير علم فمن اتبع هواه وذوقه ووجده مع علمه أنه مخالف للكتاب والسنة فهو من المغضوب عليهم وإن كان فذلك من الضالين نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا و الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين[2]

الذين فيهم شبه اليهود والنصارى

1- المعرضون عن الطريقة النبوية

وفي الحديث المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن وهؤلاء المعرضون عن الطريقة النبوية السلفية يجتمع فيهم (يقصد الفلاسفة) هذا وهذا اتباع شهوات الغي ومضلات الفتن فيكون فيهم من الضلال والغي بقدر ما خرجوا عن الطريق الذي بعث الله به رسوله ولهذا أمرنا الله أن نقول في كل صلاة {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة 6-7 وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وكان السلف يقولون احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون فكيف إذا اجتمع في الرجل الضلال والفجور وذلك لأن الهدى هو فيما بعث الله به رسله فمن أعرض عنه لم يكن مهتديا فكيف بمن عارضه بما يناقضه وقدم مناقضه عليه [3]

2- العالم الفاجر و العابد الجاهل

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون فاليهود لهم إرادات فاسدة منهى عنها كما أخبر عنهم بأنهم عصوا وكانوا يعتدون وهم يعرفون الحق ولا يعملون به فلهم علم لكن ليس لهم عمل بالعلم وهم فى الإرادة المذمومة المحرمة يتبعون أهواءهم ليسوا فى الإرادة المحمودة المأمورة بها وهى إرادة ما يحبه الله ورسوله والنصارى لهم قصد وعبادة وزهد لكنهم ضلال يعملون بغير علم فلا يعرفون الإرادة التى يحبها الله ورسوله بل غاية أحدهم تجريد نفسه عن الإرادات فلا يبقى مريدا لما أمر الله به ورسوله كما لا يريد كثيرا مما نهى الله عنه ورسوله وهؤلاء ضالون عن مقصودهم فإن مقصودهم إنما هو فى طاعة الله ورسوله ولهذا كانوا ملعونين أى

---

[1]- مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 190-192

[2]الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 275

3- درء التعارض ج: 1 ص: 165

بعيدين عن الرحمة التى تنال بطاعة الله عز وجل و العالم الفاجر يشبه اليهود و العابد الجاهل يشبه النصارى ومن أهل العلم من فيه شيء من الأول ومن أهل العبادة من فيه شيء من الثانى[1]

صاحب هوى وصاحب دنيا

كان السلف يقولون احذروا من الناس صنفين صاحب هوى قد فتنه هواه وصاحب دنيا أعمته دنياه وكانوا يقولون احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يتبعونه وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم ووصف بعضهم أحمد بن حنبل فقال رحمه الله عن الدنيا ما كان أصبره وبالماضين ما كان أشبهه أتته البدع فنفاها والدنيا فأباها وقد وصف الله أئمة المتقين فقال {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ }السجدة24 فبالصبر تترك الشهوات وباليقين تدفع الشبهات ومنه قوله في سورة العصر { وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ }العصر3 وقوله {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ }ص45 ومنه الحديث المرسل عن النبي صلى الله عليه وسلم إن الله يحب البصير الناقد عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات[2]

احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون

قال تعالى { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{52} صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ{53} فالصراط المستقيم هو ما بعث الله به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بفعل ما أمر وترك ما حظر وتصديقه فيما أخبر ولا طريق الى الله إلا ذلك وهذا سبيل أولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وجند الله الغالبين وكل ما خالف ذلك فهو من طرق أهل الغى والضلال وقد نزه الله تعالى نبيه عن هذا وهذا فقال تعالى { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2} وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{3} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى{4} عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى{5} النجم 1-5 وقد أمرنا الله سبحانه أن نقول فى صلاتنا { اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة 6-7 وقد روى الترمذى وغيره عن عدى بن حاتم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون قال الترمذى حديث صحيح وقال سفيان بن عيينة كانوا يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى وكان غير واحد من السلف يقول احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون فمن عرف الحق ولم يعمل به أشبه اليهود الذين قال الله فيهم {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }البقرة44 ومن عبد الله بغير علم بل بالغلو والشرك أشبه النصارى الذين قال الله فيهم {قُلْ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 501

[2] - اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 22

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ }المائدة77 فالأول من الغاوين والثانى من الضالين فإن الغى اتباع الهوى والضلال عدم الهدى[1]

البدع والمعاصي شعبة من الكفر

وإذا كانت البدع والمعاصي شعبة من الكفر وكانت مشتقة من شعبه كما أن الطاعات كلها شعبة من شعب الايمان ومشتقة منه وقد علم أن الذي يعرف الحق ولا يتبعه غاو يشبه اليهود وان الذي يعبد الله من غير علم وشرع هو ضال يشبه النصارى كما كان يقول من يقول من السلف من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى فعلى المسلم أن يحذر من هذين الشبهين الفاسدين من حال قوم فيهم استكبار وقسوة عن العبادة والتأله وقد أوتى نصيبا من الكتاب وحظا من العلم وقوم فيهم عبادة وتأله باشراك بالله وضلال عن سبيل الله ووحيه وشرعه وقد جعل فى قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها وهذا كثير منتشر فى الناس والشبه تقل تارة وتكثر اخرى فاما المستكبرون المتألهون لغير الله الذين لا يعبدون الله وانما يعبدون غيره للانتفاع به فهؤلاء يشبهون فرعون[2]

3- منحرفة أهل الكلام ومنحرفة أهل التصوف

فأهل العلم والإيمان فجامعون بين الأمرين بين التصديق العلمى والعمل الحبى ثم ان تصديقهم عن علم وعملهم وحبهم عن علم فسلموا من آفتى منحرفة المتكلمة والمتصوفة وحصلوا ما فات كل واحدة منهما من النقص فإن كلا المنحرفين له مفسدتان أحداهما القول بلا علم ان كان متكلما والعمل بلا علم إن كان متصوفا وهو ما وقع من البدع الكلامية والعملية المخالفة للكتاب والسنة والثانى فوت المتكلم العمل وفوت المتصوف القول والكلام وأهل السنة الباطنة والظاهرة كان كلامهم وعملهم باطنا وظاهرا بعلم وكان كل واحد من قولهم وعملهم مقرونا بالآخر وهؤلاء هم المسلمون حقا الباقون على الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين فإن منحرفة أهل الكلام فيهم شبه اليهود ومنحرفة أهل التصوف فيهم شبه النصارى ولهذا غلب على الأولين جانب الحروف وما يدل عليه من العلم والإعتقاد وعلى الآخرين جانب الأصوات وما يثيره من الوجد والحركة ومن تمام ذلك أن الله أمر نبيه أن يدعوإلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتى هى أحسن وهذه الطرق الثلاثة هى النافعة فى العلم والعمل[3]

---

[1]- مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 197-198

[2]مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 634

[3]مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 42

أصل أمر أهل الكلام والصوفية

فان النصارى عندهم عبادة وزهد وأخلاق بلا معرفة ولا بصيرة فهم ضالون واليهود عندهم علم ونظر بلا قصد صالح ولا عبادة ولا زهد ولا أخلاق كريمة فهم مغضوب عليهم والنصارى ضالون قال أبو محمد عبدالرحمن بن أبى حاتم ولا أعلم فى هذا الحرف اختلافا بين المفسرين وروى باسناده عن أبى روق عن ابن عباس وغير طريق الضالين وهم النصارى الذين اضلهم الله بفريتهم عليه يقول فالهمنا دينك الحق وهو لا اله الا الله وحده لا شريك له حتى لا تغضب علينا كما غضبت على اليهود ولا تضلنا كما أضللت النصارى فتعذبنا كما تعذبهم يقول أمنعنا من ذلك برفقك ورحمتك ورأفتك وقدرتك قال ابن أبى حاتم ولا أعلم فى هذا الحرف اختلافا بين المفسرين وقد قال سفيان بن عيينة كانوا يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد عبادنا ففيه شبه من النصارى فأهل الكلام أصل أمرهم هو النظر فى العلم ودليله فيعظمون العلم وطريقه وهو الدليل والسلوك فى طريقه وهو النظر وأهل الزهد يعظمون الارادة والمريد وطريق أهل الارادة فهؤلاء يبنون أمرهم على الارادة وأولئك يبنون أمرهم على النظر وهذه هى القوة العلمية ولابد لأهل الصراط المستقيم من هذا وهذا ولابد أن يكون هذا وهذا موافقا لما جاء به الرسول فالايمان قول وعمل وموافقة السنة وأولئك عظموا النظر وأعرضوا عن الارادة وعظموا جنس النظر ولم يلتزموا النظر الشرعى فغلطوا من جهة كون جانب الارادة لم يعظموه وان كانوا يوجبون الاعمال الظاهرة فهم لا يعرفون أعمال القلوب وحقائقها ومن جهة أن النظر لم يميزوا فيه بين النظر الشرعى الحق الذى أمر به الشارع وأخبر به وبين النظر البدعى الباطل المنهى عنه وكذلك الصوفية عظموا جنس الارادة ارادة القلب وذموا الهوى وبالغوا فى الباب ولم يميز كثير منهم بين الارادة الشرعية الموافقة لأمر الله ورسوله وبين الارادة البدعية بل أقبلوا على طريق الارادة دون طريقة النظر وأعرض كثير منهم فدخل عليهم الداخل من هاتين الجهتين ولهذا صار هؤلاء يميل اليهم النصارى ويميلون اليهم وأولئك يميل اليهم اليهود ويميلون اليهم وبين اليهود والنصارى غاية التنافر والتباغض وكذلك بين أهل الكلام والرأى وبين أهل التصوف والزهد تنافر وتباغض وهذا وهذا من الخروج عن الصراط المستقيم صراط { الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً }النساء69 نسأل الله العظيم أن يهدينا وسائر اخواننا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين[1]

كل من عمل سوءا فهو جاهل

قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين

---

[1] - مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 100-102

ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهى وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون[1]

فرض سبحانه على الخلق أن يسألوه هدايته كل يوم مرارا

فهدى الله الناس ببركة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من البينات والهدى هداية جلت عن وصف الواصفين وفاقت معرفة العارفين حتى حصل لأمته المؤمنين به عموما ولأولي العلم منهم خصوصا من العلم النافع والعمل الصالح والأخلاق العظيمة والسنن المستقيمة ما لو جمعت حكمة سائر الأمم علما وعملا الخالصة من كل شوب إلى الحكمة التي بعث بها لتفاوتتا تفاوتا يمنع معرفة قدر النسبة بينهما فلله الحمد كما يحب ربنا ويرضى ودلائل هذا وشواهده ليس هذا موضعها ثم إنه سبحانه بعثه بدين الإسلام الذي هو الصراط المستقيم وفرض على الخلق أن يسألوه هدايته كل يوم مرارا في صلاتهم ووصفه بأنه صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال عدي بن حاتم رضي الله عنه أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد فقال القوم هذا عدي بن حاتم وجئت بغير أمان ولا كتاب فلما دفعت إليه أخذ بيدي وقد قال قبل ذلك إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي قال فقام بي فلقيته امرأة وصبي معها فقالا إن لنا إليك حاجة فقام معهما حتى قضى حاجتهما ثم أخذ بيدي حتى أتى بي داره فألقت له الوليدة وسادة فجلس عليها وجلست بين يديه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما يفرك أيفرك أن تقول لا إله إلا الله فهل تعلم من إله سوى الله قال قلت لا ثم تكلم ساعة ثم قال إنما يفرك أن تقول الله أكبر أو تعلم شيئا أكبر من الله قال قلت لا قال فإن اليهود مغضوب عليه والنصارى ضلال قال فقلت فإني حنيف مسلم قال فرأيت وجهه ينبسط فرحا وذكر حديثا طويلا رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن غريب وقد دل كتاب الله على معنى هذا الحديث قال الله سبحانه {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ }المائدة60 والضمير عائد إلى اليهود والخطاب معهم كما دل عليه سياق الكلام وقال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }المجادلة14 وهم المنافقون الذين تولوا اليهود باتفاق أهل التفسير وسياق الآية يدل عليه وقال تعالى {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ }آل عمران112 وذكر في البقرة قوله تعالى {وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ }البقرة61 وفيها أيضا {فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ }البقرة90 وهذا بيان أن اليهود مغضوب عليهم وقال في النصارى {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ }المائدة73 إلى قوله {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ }المائدة77 واليهود مقصرون عن الحق والنصارى غالون فيه فأما وسم اليهود بالغضب والنصارى بالضلال فله أسباب ظاهرة وباطنة ليس هذا موضعها وجماع ذلك أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل

---

[1]- اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

بعلمهم فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه قولا أو عملا أولا قولا ولا عملا وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله ويقولون على الله مالا يعلمون ولهذا كان السلف كسفيان بن عيينة وغيره يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى ومع أن الله قد حذرنا سبيلهم فقضاؤه نافذ بما أخبر به رسوله مما سبق في علمه حيث قال فيما أخرجاه في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون شبرا بشبر وذراعا بذراع فقيل يا رسول الله كفارس والروم قال ومن الناس إلا أولئك فأخبر أنه سيكون في أمته مضاهاة لليهود والنصارى وهم أهل الكتاب ومضاهاة لفارس والروم وهم الأعاجم وقد كان صلى الله عليه وسلم ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء وليس هذا إخبارا عن جميع الأمة بل قد تواتر عنه أنه قال لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة وأخبر صلى الله عليه وسلم ان الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة و أن الله لا يزال يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم فيه بطاعته فعلم بخبره الصدق أن لا بد أن يكون في أمته قوم متمسكين بهديه الذي هو دين الإسلام محضا وقوم منحرفين إلى شعبة من شعب دين اليهود أو إلى شعبة من شعب دين النصارى وإن كان الرجل لا يكفر بهذا الانحراف بل وقد لا يفسق أيضا بل قد يكون الإنحراف كفرا وقد يكون فسقا وقد يكون سيئة وقد يكون خطأ وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلا وليس الغرض هنا تفصيل الأمور التي وقعت في الأمة مما تضارع طريق المغضوب عليهم أو الضالين وإن كان بعض ذلك قد يقع مغفورا لصاحبه إما لاجتهاد أخطأ فيه وإما لحسنات محت السيئات أو غير ذلك وإنما الغرض أن تتبين ضرورة العبد وفاقته إلى هداية الصراط المستقيم وأن ينفتح لك باب إلى معرفة الانحراف لتحذره ثم إن الصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب من اعتقادات وإرادات وغير ذلك وأمور ظاهرة من أقوال وأفعال قد تكون عبادات وقد تكون أيضا عادات في الطعام واللباس والنكاح والمسكن والاجتماع والافتراق والسفر والإقامة والركوب وغير ذلك وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ولا بد ارتباط ومناسبة فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورا ظاهرة وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعورا وأحوالا وقد بعث الله عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحكمة التي هي سنته وهي الشرعة والمنهاج الذي شرعه له فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يباين سبيل المغضوب عليهم والضالين وأمر بمخالفتهم في الهدى الظاهر وإن لم يظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة لأمور منها أن المشاركة في الهدى الظاهر تورث تناسبا وتشاكلا بين المتشابهين يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال وهذا أمر محسوس فإن اللابس لثياب أهل العلم مثلا يجد من نفسه نوع انضمام إليهم واللابس لثياب الجند المقاتلة مثلا يجد في نفسه نوع تخلق بأخلاقهم ويصير طبعه مقتضيا لذلك إلا أن يمنعه من ذلك مانع ومنها أن المخالفة في الهدى الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع ومنها أن المخالفة في الهدى الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال والانعطاف إلى أهل الهدى والرضوان وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين وكلما كان القلب أتم حياة وأعرف بالإسلام الذي هو الإسلام لست أعني مجرد التوسم به ظاهرا أو باطنا بمجرد الاعتقادات التقليدية من حيث الجملة كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنا أو ظاهرا أتم وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد

ومنها أن مشاركتهم في الهدى الظاهر توجب الاختلاط الظاهر حتى يرتفع التمييز ظاهرا بين المهديين المرضيين وبين المغضوب عليهم والضالين إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية هذا إذا لم يكن ذلك الهدى الظاهر إلا مباحا محضا لو تجرد عن مشابهتهم فأما إن كان من موجبات كفرهم فإنه يكون شعبة من شعب الكفر فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع ضلالهم ومعاصيهم فهذا أصل ينبغي أن يتفطن له والله أعلم[1]

[1]- اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 4-12

الحكمة من أمر الله أن نقول في كل صلاة {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7}

1-القلوب قد يعرض لها ما يفسدها

فالتصديق الذي فى القلب وعلمه يقتضي عمل القلب كما يقتضي الحس الحركة الإرادية لأن النفس فيها قوتان قوة الشعور بالملائم والمنافى والإحساس بذلك والعمل والتصديق به وقوة الحب للملائم والبغض للمنافى والحركة عن الحس بالخوف والرجاء والموالاة والمعاداة وإدراك الملائم يوجب اللذة والفرح والسرور وإدراك المنافى يوجب الألم والغم وقد قال النبى كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء فالقلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقا به ودينا له لكن يعرض لها ما يفسدها ومعرفة الحق تقتضي محبته ومعرفة الباطل تقتضي بغضه لما فى الفطرة من حب الحق وبغض الباطل لكن قد يعرض لها ما يفسدها إما من الشبهات التى تصدها عن التصديق بالحق وإما من الشهوات التى تصدها عن اتباعه ولهذا أمرنا الله أن نقول فى الصلاة {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة 6-7 وقال النبى صلى الله عليه وسلم اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون لأن اليهود يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ولا يتبعونه لما فيهم من الكبر والحسد الذي يوجب بغض الحق ومعاداته والنصاري لهم عبادة وفى قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية إبتدعوها لكن بلا علم فهم ضلال هؤلاء لهم معرفة بلا قصد صحيح وهؤلاء لهم قصد فى الخير بلا معرفة له وينضم إلى ذلك الظن وإتباع الهوى فلا يبقى في الحقيقة معرفة نافعة ولا قصد نافع بل يكون كما قال تعالى عن مشركي أهل الكتاب {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك10 وقال تعالى {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }الأعراف179 فالإيمان فى القلب لا يكون إيمانا بمجرد تصديق ليس معه عمل القلب وموجبه من محبة الله ورسوله ونحو ذلك كما أنه لا يكون إيمانا بمجرد ظن وهوى بل لابد فى أصل الإيمان من قول القلب وعمل القلب[1]

2- النفس لها قوتان

وقول جهم ومن وافقه أن الإيمان مجرد العلم والتصديق وهو بذلك وحده يستحق الثواب والسعادة يشبه قول من قال من الفلاسفة المشائين وأتباعهم أن سعادة الانسان فى مجرد أن يعلم الوجود على ما هو عليه كما أن قول الجهمية وهؤلاء الفلاسفة فى مسائل الأسماء والصفات و مسائل الجبر والقدر متقاربان وكذلك فى مسائل الإيمان وقد بسطنا الكلام على ذلك وبينا بعض ما فيه من الفساد فى غير هذا الموضع مثل أن العلم هو أحد قوتى النفس فإن النفس لها قوتان قوة العلم والتصديق وقوة الارادة والعمل كما أن الحيوان له قوتان قوة الحس وقوة الحركة بالارادة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 528

وليس صلاح الانسان فى مجرد أن يعلم الحق دون أن لا يحبه ويريده ويتبعه كما أنه ليس سعادته فى أن يكون عالما بالله مقرا بما يستحقه دون أن يكون محبا لله عابدا لله مطيعا لله بل أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه فإذا علم الإنسان الحق وأبغضه وعاداه كان مستحقا من غضب الله وعقابه ما لا يستحقه من ليس كذلك كما أن من كان قاصدا للحق طالبا له وهو جاهل بالمطلوب وطريقه كان فيه من الضلال وكان مستحقا من اللعنة التى هى البعد عن رحمة الله ما لا يستحقه من ليس مثله ولهذا أمرنا الله أن نقول { اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة 6-7 والمغضوب عليهم علموا الحق فلم يحبوه ولم يتبعوه والضالون قصدوا الحق لكن بجهل وضلال به وبطريقه فهذا بمنزلة العالم الفاجر وهذا بمنزلة العابد الجاهل وهذا حال اليهود فإنه مغضوب عليهم وهذا حال النصارى فإنهم ضالون كما ثبت عن النبى أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون و المتفلسفة أسوأ حالا من اليهود والنصارى فإنهم جمعوا بين جهل هؤلاء وضلالهم وبين فجور هؤلاء وظلمهم فصار فيهم من الجهل والظلم ما ليس فى اليهود ولا النصارى حيث جعلوا السعادة فى مجرد أن يعلموا الحقائق حتى يصير الإنسان عالما معقولا مطابقا للعالم الموجود ثم لم ينالوا من معرفة الله وأسمائه وصفاته وملائكته وكتبه ورسله وخلقه وأمره إلا شيئا نزرا قليلا فكان جهلهم أعظم من علمهم وضلالهم أكبر من هداهم وكانوا مترددين بين الجهل البسيط والجهل المركب فان كلامهم فى الطبيعات والرياضيات لا يفيد كمال النفس وصلاحها وإنما يحصل ذلك بالعلم الإلهي وكلامهم فيه لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل[1]

وأهل الإرادة إن لم يقترن بإرادتهم طلب العلم الواجب عليهم الإعتصام بالكتاب والسنة وإلا وقعوا فى الضلال والبغى ولو إعتصم رجل بالعلم الشرعي من غير عمل بالواجب كان غاويا وإذا إعتصم بالعبادة الشرعية من غير علم بالواجب كان ضالا والضلال سمة النصارى والبغى سمة اليهود مع أن كلا من الأمتين فيها الضلال والبغى ولهذا تجد من إنحرف عن الشريعة فى الأمر والنهى من أهل الإرادة والعبادة والسلوك والطريق ينتهون إلى الفناء الذى لا يميزون فيه بين المأمور والمحظور فيكونون فيه متبعين أهواءهم وإنما الفناء الشرعى أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه وبطاعته عن طاعة ما سواه وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه وبسؤاله عن سؤال ما سواه وبخوفه عن خوف ما سواه وهذا هو إخلاص الدين لله وعبادته وحده لا شريك له وهو دين الإسلام الذى أرسل الله به الرسل وأنزل به الكتاب[2]

3- رأس الإسلام له ضدان الكبر والشرك

الإسلام الذي هو دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين فيستسلم لله وحده لا شريك له ويكون سالما له بحيث يكون متألها له غير متأله لما سواه كما بينته أفضل الكلام ورأس الإسلام وهو شهادة أن لا إله إلا الله وله ضدان الكبر والشرك ولهذا روى أن

---

[1]- مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 585-587

[2]مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 307

نوحا عليه السلام أمر بنيه بلا إله إلا الله وسبحان الله ونهاهم عن الكبر والشرك فى حديث قد ذكرته فى غير هذا الموضع فإن المستكبر عن عبادة الله لا يعبده فلا يكون مستسلما له والذي يعبده ويعبد غيره يكون مشركا به فلا يكون سالما له بل يكون له فيه شرك ولفظ الإسلام يتضمن الإستسلام والسلامة التى هى الإخلاص وقد علم أن الرسل جميعهم بعثوا بالإسلام العام المتضمن لذلك كما قال تعالى { يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ }المائدة44 وقال موسى { إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ }يونس84 وقال تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }البقرة112 وقال الخليل لما قال له ربه { أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {131} وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ{132}البقرة131-132 وقال يوسف { تَوَفَّنِي مُسْلِماً }يوسف101 ونظائره كثيرة وعلم أن إبراهيم الخليل هو إمام الحنفاء المسلمين بعده كما جعله أمة وإماما وجاءت الرسل من ذريته بذلك فابتدعت اليهود والنصارى ما ابتدعوه مما خرج بهم عن دين الله الذي أمروا به وهو الاسلام العام ولهذا أمرنا أن نقول { اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة 6-7 وقد ثبت عن النبى أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وكل من هاتين الأمتين خرجت عن الاسلام وغلب عليها أحد ضديه فاليهود يغلب عليهم الكبر ويقل فيهم الشرك والنصارى يغلب عليهم الشرك ويقل فيهم الكبر وقد بين الله ذلك في كتابه فقال فى اليهود {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ }البقرة83 وهذا هو أصل الإسلام إلي قوله { وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ }البقرة87 وهذا اللفظ الذي هو لفظ الإستفهام هو انكار لذلك عليهم وذم لهم عليه وإنما يذمون على ما فعلوه فعلم أنهم كانوا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا فيقتلون فريقا من الأنبياء ويكذبون فريقا وهذا حال المستكبر الذي لا يقبل ما لا يهواه فإن النبى قد فسر الكبر فى الحديث الصحيح بأنه بطر الحق وغمط الناس ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله لا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ولا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذاك فقال لا إن الله جميل يحب الجمال ولكن الكبر بطر الحق وغمط الناس وبطر الحق جحده ودفعه وغمط الناس إحتقارهم وازدراؤهم وكذلك ذكر الله الكبر فى قوله بعد أن قال {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ }الأعراف145 الى أن قال {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً }الأعراف146 وهذا حال الذي لا يعمل بعلمه بل يتبع هواه وهو الغاوى كما قال {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ {175} وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ {176} الأعراف175 الآية وهذا مثل علماء السوء وقد قال لما رجع موسى اليهم {وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ }الأعراف154 فالذين يرهبون ربهم خلاف الذين يتبعون أهواءهم كما قال تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى {40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41}النازعات40-41 فأولئك المستكبرون المتبعون أهواءهم مصروفون عن آيات الله لا يعلمون ولا يفهمون لما

تركوا العمل بما علموه إستكبارا وإتباعا لأهوائهم عوقبوا بأن منعوا الفهم والعلم فان العلم حرب للمتعالى كما أن السيل حرب للمكان العالي والذين يرهبون ربهم عملوا بما علموه فأتاهم الله علما ورحمة إذ من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم [1]

4-{وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ }

قال تعالى {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ }الزخرف36 وذكر الرحمن هو الذى أنزله وهو الكتاب والسنة اللذان قال الله فيهما { وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ }البقرة231 وقال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }آل عمران164 وقال تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }الجمعة2 وهو الذكر الذى قال الله فيه {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }الحجر9 فمن أعرض عن هذا الذكر وهو الكتاب والسنة قيض له قرين من الشياطين فصار من أولياء الشيطان بحسب ما تابعه وإن كان مواليا للرحمن تارة للشيطان أخرى كان فيه من الإيمان وولاية الله بحسب ما والى فيه الرحمن وكان فيه من عداوة الله والنفاق بحسب ما والى فيه الشيطان كما قال حذيفة بن اليمان القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أغلف فذلك قلب الكافر و الأغلف الذى يلف عليه غلاف كما قال تعالى عن اليهود {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً }النساء155 وقد تقدم قوله من ترك ثلاث جمع طبع الله على قلبه وقلب منكوس فذلك قلب المنافق وقلب فيه مادتان مادة تمده للإيمان ومادة تمده للنفاق فأيهما غلب كان الحكم له وقد روى هذا فى مسند الإمام أحمد مرفوعا وفى الصحيحين عن عبدالله بن عمرون بن العاص عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصله منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر فقد بين النبى أن القلب يكون فيه شعبة نفاق وشعبة إيمان فإذا كان فيه شعبة نفاق كان فيه شعبة من ولايته وشعبة من عداوته ولهذا يكون بعض هؤلاء يجرى على يديه خوارق من جهة إيمانه بالله وتقواه تكون من كرامات الأولياء وخوارق من جهة نفاقه وعداوته تكون من أحوال الشياطين ولهذا أمرنا الله تعالى أن نقول كل صلاة { اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7}} الفاتحة 6-7 و المغضوب عليهم هم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه و الضالون الذين يعبدون الله بغير علم فمن إتبع هواه وذوقه ووجده مع علمه أنه مخالف للكتاب والسنة فهو من المغضوب عليهم وإن كان لا يعلم ذلك فهو من الضالين نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين وصلى الله على محمد [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 623-626

[2] - مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 453

5-{ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً }

فإن الله هداه بما أوحاه إليه وعلمه ما لم يكن يعلم وأمره بسؤال الزيادة من العلم بقوله { رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً }طه114 وهذا يقتضي أنه كان عالما وأنه أمر بطلب المزيد من العلم ولذلك أمر هو والمؤمنون بطلب الهداية في قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 وقد قال تعالى { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الشورى52 [1]

الشر لم يرد فى أسمائه و إنما و رد فى مفعولاته

1-أن الشر لم يرد فى أسمائه و إنما و رد فى مفعولاته و لم يضف إليه إلا على سبيل العموم و أضافه إلى السبب المخلوق أو بحذف فاعله و ذلك كقوله تعالى {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}الزمر62 و{مِن شَرِّ مَا خَلَقَ }الفلق2 و كأسمائه المقترنة مثل المعطى المانع الضار النافع المعز المذل الخافض الرافع و كقوله {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ }الشعراء80 و كقوله {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة7 و كقول الجن {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً }الجن10 و قد ثبت فى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه كان يقول فى دعاء الإستفتاح و الخير بيديك و الشر ليس إليك و سواء أريد به أنه لا يضاف إليك و لا يتقرب به إليك أو قيل إن الشر إما عدم و إما من لوازم العدم و كلاهما ليس إلى الله فهذا يبين أنه سبحانه إنما يضاف إليه الخير و أسماؤه تدل على صفاته و ذلك كله خير حسن جميل ليس فيه شر و إنما وقع الشر فى المخلوقات قال تعالى{ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{49} وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ{50}الحجر 49-50 و قال تعالى {اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }المائدة98 وقال تعالى {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }الأنعام165 فجعل المغفرة و الرحمة من معاني أسمائه الحسنى التى يسمى بها نفسه فتكون المغفرة و الرحمة من صفاته و أما العقاب الذي يتصل بالعباد فهو مخلوق له و ذلك هو الأليم فلم يقل و إني أنا المعذب [2]

كما ثبت فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى و غيره عن شداد بن أوس عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال سيد الإستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى و أنا عبدك و أنا على عهدك و وعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبى فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت من قالها إذا أصبح موقنا بها فمات من يومه دخل الجنة و من قالها إذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة و فى هذا الحديث قوله أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبى و من نعمه على عبده المؤمن ما ييسره له من الإيمان و الحسنات فإنها من فضله و إحسانه و رحمته و حكمته و سيئات العبد من عدله و حكمته إذ كل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل و هو لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته و رحمته و عدله لا لمجرد قهره و قدرته كما يقوله جهم و أتباعه[3]

---

[1]- الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 338 و **مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 384**

[2]- **مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 95**

[3]**مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 510-512**

ومعلوم أن كل مخلوق يقال هو من الله بمعنى أنه خلقه بائنا عنه لا بمعنى أنه قام به واتصف به كما في قوله تعالى {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ }الجاثية13 وقوله تعالى {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ }النحل53 والله تعالى وإن كان خالقا لكل شيء فإنه خلق الخير والشر لما له في ذلك من الحكمة التي باعتبارها كان فعله حسنا متقنا كما قال {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ }السجدة7 وقال { أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ }النمل88 فلهذا لا يضاف إليه الشر مفردا [1]

الشر لا يذكر إلا على أحد وجوه ثلاثة

قالت طوائف من المسلمين و أهل الكلام و الفقه و غيرهم من الحنفية و الحنبلية و غيرهم و من الكرامية والصوفية و كثير من المتفلسفة جميع ما يحدثه الله عز وجل فى الوجود من الضرر فلا بد فيه من حكمة قال الله تعالى { صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ }النمل88 و قال {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ }السجدة7و الضرر الذي يحصل به حكمة مطلوبة لا يكون شرا مطلقا و إن كان شرا بالنسبة إلى من تضرر به و لهذا لايجيء في كلام الله تعالى و كلام رسوله صلى الله عليه و سلم إضافة الشر وحده إلى الله بل لا يذكر الشر إلا على أحد وجوه ثلاثة إما أن يدخل فى عموم المخلوقات فإنه إذا دخل فى العموم أفاد عموم القدرة و المشيئة و الخلق و تضمن ما إشتمل عليه من حكمة تتعلق بالعموم و إما أن يضاف إلى السبب الفاعل و إما أن يحذف فاعله فالأول كقوله تعالى {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ }الزمر62 و نحو ذلك و من هذا الباب أسماء الله المقترنة كالمعطي المانع و الضار النافع المعز المذل الخافض الرافع فلا يفرد الإسم المانع عن قرينه و لا الضار عن قربنه لإن إقترانهما يدل على العموم و كل مافى الوجود من رحمة و نفع و مصلحة فهو من فضله تعالى و ما فى الوجود من غير ذلك فهو من عدله فكل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل و النهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات و الأرض فإنه لم يغض ما فى يمينه و بيده الأخرى القسط يخفض و يرفع فأخبر أن يده اليمنى فيها الإحسان إلى الخلق و يده الأخرى فيها العدل و الميزان الذى به يخفض و يرفع فحفضه و رفعه من عدله و إحسانه إلى خلقه من فضله وأما حذف الفاعل فمثل قول الجن{وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً }الجن10 و قوله تعالى في سورة الفاتحة {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة7 و نحو ذلك و إضافته إلى السبب كقوله {مِن شَرِّ مَا خَلَقَ }الفلق2 و قوله { فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا }الكهف79 مع قوله { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ً }الكهف82 و قوله تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ }النساء79 و قوله { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا }الأعراف23 و قوله تعالى {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ }آل عمران165 و أمثال ذلك[2]

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 143

[2] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 94-95

وقد جمع في الفاتحة الأصناف الثلاثة فقال {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الفاتحة2 وهذا عام وقال {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ}الفاتحة7 فحذف فاعل الغضب و قال{ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة7 فأضاف الضلال الى المخلوق ومن هذا قول الخليل {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ }الشعراء80 و قول الخضر { فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا }الكهف79 {فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً }الكهف81 { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا }الكهف82 و قد بسط الكلام على حقائق هذه الأمور و بين أن الله لم يخلق شيئا إلا لحكمة قال تعالى {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ }السجدة7 و قال { صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ }النمل88 فالمخلوق بإعتبار الحكمة التى خلق لأجلها خير و حكمة و إن كان فيه شر من جهة أخرى فذلك أمر عارض جزئي ليس شرا محضا بل الشر الذي يقصد به الخير الأرجح هو خير من الفاعل الحكيم و إن كان شرا لمن قام به و ظن الظان أن الحكمة المطلوبة التامة قد تحصل مع عدمه إنما يقوله لعدم علمه بحقائق الأمور و إرتباط بعضها ببعض فإن الخالق إذا خلق الشيء فلا بد من خلق لوازمه فإن و جود الملزوم بدون و جود اللازم ممتنع و لا بد من ترك خلق أضداده التى تنافيه فإن إجتماع الضدين المتنافيين فى و قت و احد ممتنع وهو سبحانه على كل شيء قدير لايستثنى من هذا العموم شيء لكن مسمى الشيء ما تصور و جوده فأما الممتنع لذاته فليس شيئا بإتفاق العقلاء [1]

وحد الصراط والسبيل

وقال تعالى في آل عمران {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{18} إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ {19}آل عمران18 -19 فاخبر ان الدين عند الله الاسلام وان الذين اختلفوا من اهل الكتاب وصاروا على ملل شتى ما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم وفيه بيان ان الدين واحد لا اختلاف فيه وقال {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ }الشورى13 وذكر فى النحل دعوة المرسلين جميعهم واتفاقهم على عبادة الله وحده لا شريك له فقال {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ }النحل36 الاية وهذا فى القرآن مذكور فى مواضع كثيرة وكذلك فى الأحاديث الصحيحة مثل ما ترجم عليه البخارى فقال باب ما جاء فى أن دين الأنبياء واحد وذكر الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة عن النبى قال انا معاشر الأنبياء اخوة لعلات ومثل صفته فى التوراة لن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فافتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا ولهذا وحد الصراط والسبيل فى مثل قوله تعالى { اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة6-7 ومثل قوله تعالى {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ }الأنعام153ومثل قوله {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ }البقرة257 وقوله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 510-512

{مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ }البقرة261 { وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ}البقرة218
وقوله{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ }الأنفال39 والاسلام دين جميع المرسلين [1]

[1]- مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 110-111

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ
الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي
إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

###